عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري

حاطب ليل ضجر

١





١

الطبعة الأولى

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقياً : شروق - تلكس : 93091 SHROK UN
بيروت : ص ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقياً : داشروق - تلكس : SHOROK 20175 LE
SHOROUK INTERNATIONAL: 316/318 REGENT STREET, LONDON W1, UK, TEL: 637 2743/4, TELEX. SHOROK 25779G

حاطب ليل ضجر

عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري

دار الشروق

إهــــداء

إلى حـمامــة الــدَّوح ...
إلــ واردة الغـــدير ...
إلى ظبــية الفــلاة ...
إلى ربّــة بـيت الشَّــعْر ...
إلى قــيس وليـلاه وجـميل وبثـيناه ...
إلى ذكرياتي عن الجمل والحصان والخيمة والوادي...
إلى قــارئ لم يركب الجمل ولم يسـكـن
الخيــمة ولم يَـرِد الغـدير ...
أهــدي هــذه الخطرات الظامئة إلى الحقيقة...
والخـائفة على جناح العقاب العربي أن ينكسـر
فـلا يلحق بمنازله في قــمم الجبــال ...
مــع من لحق .. !!

هـــذه نَفْـــسٌ تفضِى بســـرِّها

للأستاذ الدكتور زكى نجيب محمود

لم أكد أقرأُ من هذا الكتاب فاتحته حتى أحسست وكأنى خطوتُ بقدمى فى عالم مسحور ، يستضىء بضوء القمر الحالم الذى يُشِيعُ أمام البصر ما يشبهُ أن يكون أحلامَ الحالمين ، إذ أحسست كأنّ الذى أمامى ليس كلماتٍ مسودة وإنما هو ضُروبٌ من الحنين الخائف ، ومن القلق المتأرق ومن الطموح المتوثب .

فها هى ذى نَفْس أرادتْ أن تلوذَ بأبويها لتُفضِى إليهما بما تضطربُ به سَرِيَرتُها حين رأتْ فيمن حولها وما حولها ما يثير الجزع والفزع وكأنه قد ذَهَبَ عنها كلٌّ الذين يُعَاشُ فى أكنافهم ولم يبق لها إلّا شىءٌ يثيرها . ولكن من هُمَا الأبوان اللذان لاذتْ بهما هذه النفسُ القلقة الخائفة .

ليسا هما الأبوين المباشرين ، ولا هُما أَحَدٌ من الأجداد ذوى العهد القريب ، فكل هؤلاء قد بَدَوْا لهذه النفس وكأنهم معها فى أتونٍ واحدٍ من لهبِ العناء ، لا إنهما أَبَوَان وراء هؤلاء جميعا، بل هما وراء الوراء ، هما الأصلُ الأولُ الذى جاء البشرُ جميعا نَسْلاً لهما وكأنهم أوراقُ شجرةٍ واحدةٍ كان ذلكما الأبوان أَصْلَها ، إنهما آدم « عليه

السلام » و « حواء » ، وإلى هذين الأبوين لجأت هذه النفسُ لتُفْضِى إليهما بسرِّها المكنون .

إنها وهى تُفْضِى بذلك السرّ لم يكن بها حاجةٌ إلى بصرٍ ترى به الأشياء من حولها ، أو إلى سمعٍ تنصتُ به إلى ماحولها من صوت ، فلقد رأى البصر قبل ذلك وسمعتْ الأذن مافيه الكفاية وأصبحتْ الذكرياتُ وحدها التى شُحِنتْ بها شحنا حتى أُتْرِعَ إناؤها إلى حافته وفاض ، ولهذا لم تلجأْ النفس فى عرضها لسرّها أمام أبويها إلّا ذكرياتها ، فهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو إذاً رحلةٌ داخلية فى حنايا الضلوع .

إنها رحلةٌ فى ساحة الذات ، تنظر إليها النفس من باطن لترى شيئا مما امتلأت به جوانحها مما سرّها وأحزنها ، مما أرضاها وأسخطها ، مِمّا أَسْعدها وأشقاها ، إنها ـ اختصارا ـ رحلةٌ يكتُبُها رحالة بنفسه عن نفسه ليعيش معه القارئ نبضةً نبضة من حياته وماتركتْ فيه من أثر ، فهذا الكتابُ بكلٍّ مافيه من خواطر أخذتْ تتلاحق فى لهفةٍ ملحوظةٍ وكأن الخاطرة اللاحقة تريد أن تسبق الخاطرة التى سبقتها ، أقول : إن هذا الكتاب بكل ماورد فيه من خواطر عما أفضتْ به نفسُ كاتِبه أمام أبويه ، إنما هو ضربٌ جديد من السيرة الذاتية ، فلقد رأينا وقرأنا قبل ذلك كثيرا من سِيَرِ العظماء التى ترجموا بها عن ذوات نفوسهم ،

ولكننا قلما وقعتْ أبصارنا على سيرةٍ ذاتيةٍ جاءتْ بالصورة التى جاءت بها سيرة الكاتب عن نفسه فى هذا الكتاب .

وكان طَبَعِيًّا أن يلجأ الكاتبُ فى إفضائه أمام أبويه بسريرة نفسه أن يركن إلى استرسال خواطره كما اتفق ، لايتعمدُ فى روايتها تقسيما وتبويبا كما يفعل المؤلفون عادة ذلك لأنه كأى رحالةٍ آخر يرتحلُ فى النجد مرّة وفى الوهدِ مرّة ، ويعبر الشوكَ حينا والزهر حينا ، وَيَجْـرَعُ الحلو يوما والمر يوما .. أقول : إنه كان طبعا أن يلجأ هذا الرحالة إلى طريقة كل رحالةٍ آخر من متابعة ما يصادفه فى سبيله كائنا ما كان وفى أى وقت جاء ، ومن هنا لو جاز لنا أنْ نستخرج منهجا للسير فى هذا الكتاب قلنا إنهُ تداعى المعانى ، فالمعنى الواحدُ يُترَكُ ليشد معه معنى آخر يربطه به صلة من النَّسب أو وشيجةٌ من الوشائج . ولعل هذا السير مع انسياب التيار الدافق ، الذى لايَعْرِفُ الفواصل بين خطوة وخطوة فى مسرة واحدة ، شأنه شأن الحياة نفسها ، تتداخل لحظاتها سابقة منها مع لاحقة ، لعلّ هذا السير فى إطلاق الخواطر هو عامل بين عوامل أخرى مكّنت أديبنا مؤلّف هذا الكتاب من أن يجىء فى كتابته وفى فكره أصيلاً غير مسبوق ، فهو ـ كما يقول عن نفسه ـ «لم تُلْقحْ رياحُه عندى فلسفةَ هذا أو ذاك» .

نعم إن هنالك فى أدبنا العربى القديم والحديث معا مَنْ تَرَكَ القلمَ

ليسبَح بكلماته مع تيار الخواطر ، وَحسْبُنَا من أدبنا العربى المعاصر أن نذكر من هذا الطراز مصطفى صادق الرافعى فى بعض ما كتبه ، إلا أننى أشعر شعوراً قويا أمام هذا الكاتب بأنه فريد متفرّد فى طريقة اغترافه لخواطره من سابق خبرته ، فهو يُوحى إليك بالصدق الذى لاتصنع فيه ولاتكلّف . أكثرَ جداًّ مما يُوحى به أى كاتبٍ آخر ممن استرسلوا مع خواطرهم ، وذلك لأنه إذا كان غيره قد استخدم الأصباغ المجلوبة ليزين بها ألفاظه وعباراته ، فهذا الكاتب يقدّمُ إليك حديثاً أقوى مايكون الحديث ، وجمالا فى اللفظ أرْفعُ مايكونُ الجمال ، لكن ذلك كُلَّهُ يبدو لك وكأنه فطرة من الفطرة ، وليس فيه شيء مما يُجْتَلَبُ من أسواق الآخرين .

إن من علائم الأدب الأصيل أنه يدمج الذات والموضوع دمجاً لايجعلُ بينهما انفصالاً ، وتلك هى العلامة الفارقةُ بين أدب وعلم ، أو بين قلب وعقل ، وذلك لأن الكاتب الذى يُدْخلُ منطق العقل فى كتابته ، بمعنى أن يرتب خطواته ترتيبا يقدِّم الشواهد ليستنبط منها النتائج ، تراه وقد وقف بعيداً عن موضوعه الذى يكتب فيه ، فهو فى طرفٍ والموضوعُ فى طرفٍ آخر ، وكأنه جراح أمسك بمشرطهِ ليُشَرِّح بمشرطه جثةً أمامه على منضدة التشريح ، وأما أديبنا مؤلف هذا الكتاب فهو نفسُهُ الموضوع ،والموضوع هو ذاتُ الكاتب ،أشْبَه شيء

بوقفة الفنان الذى يرتسم فى وجدانه موضوع فنه قبل أن يخرجهُ أمام الناس نتاجاً تراه الأبصار أو تسمعُهُ الآذان ، نعم ، إنك تراهُ هنا وهناك فى خواطره يقفُ وقفاتٍ تطولُ حينا وتقصر حينا ليقرأ خلالها جانبا من جوانب الكون الفسيح الذى هو مفتُونٌ به ، مبهورٌ بعظمته ، إلاّ أنه كلما وقف وقفةً من هذه الوقفات لم يكن الجانب من الكوْن الذى يكتبُ عنه ماثلاً أمام عينيه أو صائتا بأنغامه فى أذنيه ، وإنما هو يغترف من ذكرياته ومن حياته التى كابدها وعاناها ، وهكذا نرى مَوْضُوعَهُ هو ذاتُه كما أن ذَاتَه هى موضوعُه مهما يكن المجال الذى يكتب فيه خاطرة من خواطره ، استمعْ إليه وهو يقول عن نفسه : « إنه حرفٌ من حروف هذا الكون العظيم لترى إلى أى حد يَرْبطُ وَجُودَه بوجود الكون الذى يحويه ، وإلى أى حد يقيمُ معنى وُجُوده على معنى وجود الكون كُله ، فالهدف واحد ، والغاية واحدة ، فهنالك كونٌ أوجده الخالق ـ جلّ وعلا ـ وهنالك إنسان خَلَقَهُ الله ـ سبحانه وتعالى ـ ليتفكر فى ذلك الكون قائما وقاعداً وراقدا ، أو استمعْ إليه وهو يقول : « فُتحَت لنا صفحات هذا الكون الواسعة ، وقيل لنا تأملوا واقرءوا وسيحوا » ... أو استمع إليه وهو يقول : « فى أودية النفس وفى فلواتها أَثَرْتُ جِمَالى ، وَسَرَحتُ بها ، أبحث عن الخصْب والربيع ، ومع الأيام والسنين الطويلة أَلْقحتُ نياقى ثم وَلّدْتُها على قمم التساؤلات ،

ولكن قليلا مادر لى ضَرْعُها ، والضّرْعُ الذى دَرّ لم يملأ الكأس ظل عطشى يخادعنى معه السراب ، يجذبنى إليه فألتاعُ ، وهنا يضطرب الحَمْلُ فى جوف السؤال يصابُ بالعُسْرِ عند ولادته ، ورغوةُ الدّر لاتأتى من ثدى جَفّ ضَرْعُهُ فصار إلى جلدةٍ ميتة » ولعل القارئ يستطيع أن يرى من هذه العبارة الأخيرة كم يُلحّ أديبنا فى أن يستولد الكون سره ، وكم يضن الكون بالبوْح عن سرٍّ نَفسِهِ .

إن أديبنا مؤلف هذا الكتاب قد اعتمد فى كل كلمةٍ خطها قلمه ، وفى كل خاطرةٍ فاضتْ بها ذكرياته من خبرة حياته ،اعتمد فى هذا كله على فطرة نفسه كما ورثها عن أبويه الأولين ، وماذا تكون تلك الفطرة إلا عقله وقلبه ووجدانه ، فهو لم يكُفّ عن التساؤل المتأمل حيال خلق الله ،لا يجيب عن تساؤلاته تلك بشىءٍ قرأه فى كتاب ،أو بدرس سمعه من أستاذ ، أو بحكمة تركها له حكيم ، وإنما هى فطرته وحدها مصدره لذى لامصدر له سواها بدافعها يسأل مايسأل ، وبوسائلها يجيب بما يجيب ، وإنها لتساؤلات كما وصفها هو « تساؤلات كاسرة لسيقان الصبر » ... وإن فطرته تلك لاتعطيه الجواب حين تعطيه فى يُسرٍ وسخاء ، وإنما هى فطرة تتوقع منه أن يكد ويجد ويجتهد ليستخرج منها مكنونها ، واقرأ له هذه العبارة الآتية لترى كم كان يعانى من صدود تلك الفطرة وروغانها « فى غبراء النفس تعوى الذئاب ، وفى غبراء

النفس تتغول الغيلان » ، وبرغم ذلك العُسر كله فى توليد المعانى من المعانى فلم يكن بين يدى أديبنا من وسيلة يتوسلها سوى أدوات فطرته ، وهو فى ذلك يقول: «منذ يوم الهبوط الأول جاء الإنسان مزودا بالإحساس والشعور والوعى والعقل والفكر.. تلك هى الرواحل والمطايا » . وبتلك الفطرة الصافية النقية الخصب الولود الأمينة الصادقة استمد أديبنا فكرته عن العبادة كيف تكون ، فهو لايراها من العبادة فى شئ تلك التى يجىء النطق فيها كما يجىء النطق من الببغاء أو تلك التى تجىء حركات البدن فيها كما تجىء من آلة صماء ، وإنما هى العبادة الحق تلك التى تجىء ألفاظها وحركاتها عن وعى يقظان ، وعن وجدان مرهف ، وعن عقل واع وحاضر ، واستمع إليه وهو فى ذلك كله يقول وهو يخاطب أبويه آدم وحواء : «طريق إليكما ... محاولة أن يكون لى فى كل خطوة غير يائسة أخطوها على قدمى عقلى وروحى وفكرى مكانا أسجد فيه . وأصلى صلاة العقل والوعى والروح لا صلاة الشبح الذى يتحرك وكل شىء فيه نائم لم يستيقظ على المعنى العظيم لفريضة الصلاة» .

ولعل ذلك الفرق البعيد بين ماهو كائن فى صور الحياة المتصنعة المتكلفة التى يراها أديبنا من حوله ، وبين مايتوق إليه من كمالات ، هو أحد المصادر التى جاءه منها ذلك القلق الذى يحسه قارئ هذا الكتاب

باديا فى كل صفحة من صفحاته .. إن أديبنا يكادُ يأخذه الفزع كلما رأى تلك الهوة العميقة التى أصبحت اليوم تفصل الإنسان فى حياته العملية الجارية عن المثل الأعلى الذى كان يمكن أن يبثه فى حياته ، ولقد رأى فى مواضع كثيرة من خواطره أن الماضى فى بساطته وصدقه وإخلاصه ونقائه وصفائه كان أقرب من يومنا هذا إلى الكمال أو قل إلى ماهو فى مستطاع البشر من ذلك الكمال ، فالكمال لله وحده . وقد عبر عن قلقه هذا بصور كثيرة منها قوله : « ظمأ عندى لايرتوى ، وجوع لايشبع » .

وقوله : « ويوم رحلت مطيتى على نية السفر البعيد ثم نخستها بعرقوب القدم وقلت لها سيرى إلى حيث يسير الرواد » ثم يستطرد فى هذا الموضع ليقول : إنه لايخضع نفسه لما ذهب إليه كثيرون من فلاسفة هذا العصر ومفكريه بما يتضمن التفاوت بين عباد الله بحيث يجعل منهم من هو « سوبر مان » .. على حد ماقالوا . ومنهم من هو أدنى . إذ أن مثل هذه التفرقة البغيضة لاتستقيم مع عدل الله ـ سبحانه وتعالى ـ

ومع ذلك فكثيراً مايشير أديبنا إلى هذا العصر الذى نعيشُ فيه إشارات تتضمن وجوب مسايرته فى بعض جوانبه فليس كل مافيه سيئا ونضرب مثلا لذلك وقفة وقفها مع أبى الطيب المتنبى فى قولته :

لكل امرئ من دهره ماتعودا ..

فقال الكاتب تعليقا على ذلك مامعناه إن ذلك القول قد يصدق على حياة السابقين حين كانت الأيام تجرى متجانسة لايكاد يوم منها يختلف عن يوم فعندئذ يصح القول عن الإنسان إنه إنما يعيش فى يومه ماتعوده فى أمسه ، وأما فى عصرنا هذا فالتغير سريع حتى ليحتاج كل يوم إلى موقف يختلف قليلا أو كثيرا عما قد احتاجه الأمس القريب ، ودع عنك ماكان قد احتاج إليه الأمس البعيد .

ويخيل إلىّ أن أديبنا وهو يسترجع لنفسه هذا التقلب فى صور الحياة من يوم إلى يوم قد وردت عليه خاطرة الخير والشر ، فالإنسان واحد ، ولكن ينابيع فطرته قد أعدت لتمده بالخير إذا أراده ، وبالشر إذا أراده وهو استعداد فطرى فى الإنسان يؤسس عليه اختياره لفعله ، ومن ثم وقعت عليه التبعة ووجب عليه الحساب يوم الحساب .. فاستمع إلى أديبنا وهو يقول فى ذلك : « نقيم مساجدنا مثلما نقيم للمعصية سراديبها ، كل ميسر لما خلق له » .

إلا أن الشر فى الإنسان قد لايرجأ جزاؤه إلى يوم البعث ، بل إنه كثيرا جدا مايوُلد عقابه بذاته ، ولأديبنا فى ذلك تصوير جميل إذ يقول : « الطين فينا كلما حاولنا أن نعلى شرفاته انهار البناء .. هذا هو قدر الطين ... ماتمنعت على الفناء شرفات إيوانى كسرى ولاقيصر .. كل شرفة أطل منها الطين ولم تطل الأخلاق اندثرت » . وربما جاءت

هذه الحيرة فى حياة الإنسان بين خيره وشره نتيجة لحيرته أمام هذا الكون العظيم إذ قد يبدو له مايراه فى العالم أنه متناقض بعضه مع بعض مما يتعذر عليه فهمه فيقع فى الخطأ ، وفى مثل هذا يقول أديبنا « عوالم كبرى من المتناقضات تلقى بظلالها على عقل الإنسان ، دروب وعرة بين الإنسان وأخيه الإنسان .. متاهات لا دليل للإنسان فيها غير التجربة وهداية الله » .

لكن أديبنا برغم كل مارآه فى حياة الناس من اصطراع بين خير وشر ، لم يفته ذلك الإيمان العميق الخاشع بصنعة الله ـ سبحانه وتعالى ـ الذى خلق الإنسان فى أحسن تقويم والذى أراد له أن يكون خليفته فى الأرض والذى كتب له أن يكون سيد الكائنات أقول : إن أديبنا لم يفته أن يضع الإنسان هذا الموضع من التكريم فأشار إلى ذلك إشارات هنا وهناك من كتابه ، على أنه قد أشار كذلك إلى حقيقة مهمة وهى أن الإنسان وإن تكن له تلك السيادة على سائر الكائنات الأرضية فهو فى الوقت نفسه مقيدٌ بما شاءت له القدرة الإلهية من حدود ، فلكل إنسان قدره الذى لايستطيع مجاوزته حتى وإن أراد ، وفى هذا المعنى يقول أديبنا فى رفعة شأن الإنسان بالنسبة لغيره من الكائنات : « بيننا مسافات .. صخور الجبل اليابسة .. وصمتها المطبق ، وجسمها البدين ، وثقلها على

جبهة الأرض .. كل هذا لايساوى شيئا بالنسبة إلى الإنسان » كما يقول فى تقيد الإنسان بقدره : « ليس فى أى فلسفة أو عقل أو دين تقى أو ملحد .. شقى أو مؤمن قدرة على تجاوز قدره مع الحياة والموت ، فبداوتى وفطرتى وأميتى وموقعى من هذا الكون فى هذه الصحراء ، ومرقدى وسط الخيمة ، ورؤيتى ، فوق كل فلسفة ، وكل فكر يغالى فى قدره ، ويتجه إلى الشك فى الله» .

الحق إن أديبنا الكبير الأستاذ الشيخ عبد العزيز التويجرى قد أتاح لى ساعات من نشوة الفن الأدبى الرفيع هى من أطيب ساعات الزمن ، فلقد قدم لنا مايقدمه الأدب العظيم من عالم بناه بقلمه ، يدخله القارئ ، وكأنما قد دخل فى عالم ساحر بفتنته أخاذ بجماله ، نافذ ببصيرته حتى ليخرج القارئ من عالمه السامى هذا أسمى روحاً وأرهف حسا ، وأصح قلبا ، وأصدق عقلا وفكرا منه حين دخل أول مرة وإننى لعلى يقين من أن آيته الأدبية هذه فى كتابه هذا « حاطب ليل ضجر » سيكون لها بإذن الله وتوفيقه مكانها ومكانتها فى الأدب العربى الحديث .

د. زكى نجيب محمود

القاهرة فى ٤ فبراير ١٩٨٦م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

لعل حاطب ليل مثلى لا تَلْتَفُّ على ساقه حية من حيات الظلام فلا تمهله أن يحتطب من أوديته النفسية وقوداً يضىء لقلمه فى عتمة الليل الطريق الذى يمشى عليه . ومثل هذه الأمنيات تطاول ليلها على ضَجِرٍ قبلى فقال :

ألَا أَيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجلِ

بِصُبحٍ وما الإصباحُ مِنْك بأَمْثلِ

وإذا انجلى ظلام ضجر فى ليلته ذلك العربى القديم ألا يعاوده هذا الضجر وإن صار الهلال إلى قمر ... ؟ أتساءل من خيمته التى نصبها على جمجمة الزمن وتركها فى قلب الصحراء وقال لراكبة الجمل يوم صار نزيلاً عليها فى هودجها « سيرى وأرخى زمامه » ولأنى اليوم لم يعد لى جملها ولم يعد لى حصانه تحاملتُ على شيخوختى وحاولت أن أمشى فى مفازات نائية داخل نفسى . ولا أدرى إلى أين تتجه بى خطاى ولكنى سأحاول أن أترك مكانى شاغراً فى الصف الذى تقف عليه غوغاء الذات .

وماطرحت له حبلى واحتطبته فى هذه الرسائل ليس إلا أعواداً يابسة أكلت أسرابُ الجراد اخضرارها فشاخت كشيخوختى .

ومن محاولتى لارتياد نفسى وسيرى على قدم الشيخوخة الذهنية رجعت وأقلامى قوائل لى مالم تقله هذه فى فلسفة السيف عند أبى الطيب ، ففلسفة السيف وسلطانه على القلم ماحلا المشكلة ولا أمنا بها الطريق الطويل الذى مشت عليه البشرية .

مافى هذه الرسائل قوافل من سوارح النفس ملت المقام وضجرت ثم تداعت فى غير انتظام على فم القلم. وقلم لايستطيعُ أن يعبر فى فجاج الذات ثم يعود بما لديها من أخبار ألا نرثى لحاله وحال أيامى يتيمات ظللن لابسات السواد فى انتظار ارتياده لمنازلهن فجاء إليهن ثم عاد من حيث أتى دون أن يعتق واحدة منهن من رق العبودية .....؟ وهذا ماحصل معى فى هذه الرسائل ، حاولت أن تكون تغريدة كهديل الحمام ، فصارت إلى خليط لاتجانس بينها ولانسب فقد اختلت روابط العائلة الذاتية وبخللها اختل عندى فى هذه الرسائل مجتمعى الخاص !!.

ولمن سيقرؤنى فى هذه الرسائل قد يرانى أو لايرانى متوارياً خلف جدر نفسية ، وهذا الاحتمال من أن يكون لى قارئ لا أبنيه على فلسفة تعرض نفسها على الطريق العام ، ولكنى بقدر طاقتى واحتمالى حاولت

أن أبنى على هذه الأوراق صوراً أثقلت كاهلى فقلت لها : تحولى عنه إلى خارج البيت الذاتى ، فَمنْ لايَرْمِ أثقاله وهمومه عن عاتقه فى مثل هذا الهذيان الذى لايعنى غير كاتبه ، فقد يتآكل فى ذهنه وعقله وتفكيره كلٌّ جميل فى هذه الحياة ويصير إلى جذع يبس وتخشب لاظل له فيطرحه لتستريح فيه ذاته من طول السفر....

وهنا أقول ماقاله الشاعر القديم :

على حينِ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبا

وقلتُ ألمَّا تصح والشيبُ وازعُ ..... ؟

عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري

إلى وادى أُشَىّ

أبـوىّ :

إلى وادى «أُشىّ[1]» عدت بعد فراق طويل ، لا لأقضى إجازة مع ربيعه أو خريفه أو صيفه ،عدت إليه حاملا معى تساؤلاتى وحيرتى ، والتساؤلات قد تكون خابطة خبط عشواء أو راكضة ركض جواد امرئ القيس ، فميراثى الطويل وحاشيته الذاتية وقراءاتى فى كتاب هذا الكون وفى كتاب الإنسان الذى أنا حرف من حروفه ، كل ذلك يستعجلنى أن أكتب هذه الرسائل .

أليس من حقى أن أرقى قمة الجبل الزمنى وأمشى فى هذا الصعود ، وإن أدمت قدمى صخوره ؟؟ حركة دائبة فى أودية النفس لا تهجع ولا تقيل ، أحلام اليقظة مع ضحى النهار وأحلام الليل الطويل حَرَكَتُها فى آفاق الصور لا تهجع مع الجسد الهاجع ، وهنا لا أدرى وأنا أرصد الحركة وأتابع الحلم لأفك رموزه ، على أى مدرسة أتتلمذ ؟ فالذاكرة كلما ساءلتها ماذا معك ؟ أأنت ذاكرة الزمن ومواريثه أم ذاكرتى وحدى ؟

---

(١) أُشَيىّ : شعبة من شعب وادى اليمامة ، والأُشى جمع أُشية (النخلة الصغيرة) .

أأنت نبت فى ترابى الخاص فأتساءل من أين بذرتك ؟ لاتنبت التربة وتفرج إلا عن جنين رقد فى أحشائها من يوم أخذت مسارها فى هذا الكون ولكن استجداء الجواب من الذاكرة لم يلحق به جواب تطلقه من عقاله فكرة التداعى . فكثافة حيطان الذات التى لاتستقبل زائراً أو تسمح لخارج منها بما يدلى بمعلومات فوق الظنون ، هى مشكلة الإنسان مع أوهامه ومع تكوره على نفسه وعلى أفعاله ، تجاور فى قيعان الذات بين الربيع والخريف ، بين الرياح والريح ، بين الليل والنهار ، بين القمر والهلال ، والصورة أو التصور الذى يلامس فم قلمى الآن ويريقه على الورق ألفاظا معقدة قد تكون مريضة أو سليمة ، لا أدرى أمنازلها بعيدة وأن ما معى عن هذه المنازل ظلال تلقيها ذؤابة هذا الكون على عقل معتقل فى وحل الذات ؟ كم تساءلت أين الطريق الذى أمشى عليه عدواً وراء الأمل ؟ لو تراءى لى فى كهوف النفس أفى إمكانى أن ألحق به قبل أن يختفى فى الظلمة ؟ تساؤلات كاسرات لسيقان الصبر والاحتمال عندى ، ومن هذه حالة أيبقى فى مبرك الجمل الثاوى ميتاً لاحركة فيه ؟؟ أم أن العظم الكسير تجبره الأحداث وتعطيه العثرات والصعاب قوة احتمال لاتصيبها كل بنادق الرماة والذين مروا بالحياة مرور سحابة صيف على عجل دون أن يمارسوا التجربة القاسية لو لامسنا عظامهم لوجدناها هشة تكسرها يد الوليد بأدنى ملامسة .

وما الرمز بالعظام إن كانت ساقاً يحملها القدم أو كانت إرادة لا أعرف مم تتكون إلا تجربة مع الساق ومع الإرادة اللتين إذا انكسرتا عند إنسان تلاشى وجوده .

ولأنى فى يوم بعيد حرثت الأرض وأبرت النخلات وأسقيتها من عرقى أيقنت أنه لافراغ إذا ناديته لايجيب فكل من ناديتَه بالصوت الذى يناسبه استجاب لك ، فالتربة فى الإنسان أو فى هذا الكوكب من ناداها بوسائله وأسبابه جاءته معها النتيجة محمولة على هودج الحياة الذى لايمل الرديف ولايثنى جمله الذى يحمله قدم للاستراحة ، والإنسان فى معاناته إن كان فى بيت كسرى أو قيصر أو ضائعا على الرصيف العام يتساوى فى آلامه وأحزانه ، ومن يتابع سير الإنسان على الدرب الذى مشى عليه وترصده عنده قوة الملاحظة ماذا ترى فى أشعاره ، أو فى آثاره ، أو فى كل ماعبر به غير مايثنى رقبة التساؤلات عنه حتى تلامس الركب محدقة فى الصورة الواحدة التى وإن تراءى للناظر إليها أنها لاتسع فى حجمها إنسان الأزمنة البعيدة فإنها وإن اختلفت فى ملامح جيل عن آخر وإنسان عن إنسان تظل فى السير حذو النعل بالنعل .

ويوم زرت وادينا ظمآن إلى غديره الذى عهدى به أيام صباى وجدت النخلات ظمأى مثلى . والعطش إذا أصاب نخلات الوادى

فتحنا بطن الأرض وأدلينا بدلائنا فأوردنا النخلات من ساقية البئر ، هذه حالة عشناها فى كدح مضنٍ ومن حولنا الصحراء تعوى ذئابها ويطّرد فيها السراب ما ارتعش الخوف بين الجبلين ولانزلت الحمائم الورق من فروع النخلات خوفاً من بندقية فلاح فهى مطربته وهى أنيسته .

ووادينا الذى ذكرياتنا عنه بعيدة فى أغوار الزمن قال عنه الشاعر القديم[1] :

لاحبذا أنتِ ياصنعاء من بلدٍ
ولا شعوب هوى منى ولا نقم
وحبذا حين تمسى الريح باردة
وادى أشي وفتيان به هُضُم

وصنعاء يومئذ حاضرة العرب ورمز حضارة الجزيرة العربية ، لماذا عاد راجعاً منها هذا الشاعر إلى نخلات بين جبلين قد تكون آنذاك فى فم السباع من وحشة الصحراء ؟ أهذا حب التراب ؟ أهذا منه نداء ظلت تردد صداه جبال اليمامة فى نفوسنا نحن الورثة ؟؟ هو هذا . وصنعاء التى عاد منها مسرعاً هى اليوم مع التاريخ ومع الزمن البعيد فى مخاض

---

(١) الأبيات لزياد بن حمل الملقب بالمرار وهو من بنى حنظلة أحد بطون تميم ، والأبيات فى ديوان الحماسة .

سيلد للعرب تراثاً حضارياً موغلا فى أعماق الدهور السحيقة ـ إن شاء الله ـ وما العائد إلى نخلاته فى قلب الصحراء إلا بدوى رمز لنا بوفائه لهذه النخلات فلم تلهه عنها مدنية اليمن السعيد وحضارته .

صور تتراءى لنا من بعيد وتقرئنا ملامحها ما كانت عليه فنحاول أن نضع لها ظلالا على مثل هذه الأوراق حتى لاتنام على كثبان الزمن .

واد غادرته فى شبابى ، عودتى إليه اليوم شيخا متكئا على عصاه ماذا تعنى بالنسبة لى غير ماعنته عودة ذلك البدوى إليه قبل أكثر من ألف عام من صنعاء اليمن ؟ هو عاد ومعه وفاؤه له ، لم يثنه عن ذلك وحشة الطريق ولامخاوف الصحراء ولاعزلة نخلاته فى واد لامجاور له فيه غير السباع والضباع ، وعودتى أنا ومعى صورة من هذه الحضارة وهذه المدنية تتراءى لى فى الأرض وفى الفضاء ، أبينها وبين عودة ذلك البدوى نسب ؟ هل فى أغوار النفس ذكريات عنه أيقظها هذا العصر فإذا الوادى وإذا النخلات وإذا البدوى يقبضون على شيخوخة أوقفتها على مفترق الطرق قدم قيدها الزمن بقيود ثقيلة فيأخذونها طواعية إلى ملاعب صباها وأيام لم يكن فيها غير نسيم الصبا ومناجاة قمر السماء ونجومها ؟؟

يوم أصغى إلى قراءات التاريخ

أبــويّ :

ما أبعد المسافات الزمنية بيننا ! ما أكثرها ظلمة ووحشة وكثافة ! ! ما أبعدها حتى وإن ركبتُ إليها سرعة الضوء ! وما أقْرَبَها وألصقها بقلبي وروحى حين تقول لها هذه أفسحى لى الطريق وتلاشى فليس فى جسمك الضخم وتمددك الزمنى عائق تتعثر فيه خطاى ! ! فصخور الجبل اليابسة ، وصمتها المطبق وجسمها البدين وثقلها على جبهة الأرض كل هذا لا يساوى شيئًا بالنسبة إلى الإنسان وما على عقله وذهنه وفكره من أحمال تضطرب لثقلها عليه أسئلة حار فيها ، واختلف فى الجواب عنها ! ! .. والحيرة إلى أى مرتبة ترتقى ؟ أهى نكران وشك وجحود أم عبادة وتأمل وسقوط فى جوف المعاناة من أجل الحقيقة ، من أجل الله .. ؟

إن رياح تساؤلاتى وحيرتى لم تلقحها عندى فلسفةُ هذا أو ذاك ، ولم تذرها من مباركها وسوسة الضلال والفجور ، فرواحلى المسافرات بى إلى أعماق هذا الوجود محاولة غير يائسة فى أن يكون لى فى كل خطوة

أخطوها على قَدَمَيْ عقلى وروحى وفكرى مكان أسجد فيه وأصلى صلاة العقل والوعى والروح لا صلاة الشبح الذى يتحرك وكل شىء فيه نائم لم يستيقظ على المعنى العظيم لفريضة الصلاة ! ! .

أبقى الآن فى حدود الزمان والمكان اللذين هما للإنسان فى هذه الحياة حلبة الصراع النفسى والعقلى والروحى وهما مطية التحول فى البعد اللامتناهى فى الغموض وحكمته ، ولعلى فى لحظتى هذه لا أرعوى مع الوسوسة التى ظلت تطاردنا فوق خيول وأحصنة لم يركبها داخل نفوسنا تقى نثق بتقواه ، فالغريم الذى لم تكن منازله فينا معلومة فنقوض خيامه ، ثم نحرقها لتبقى التربة طاهرة نقية هو مشكلة المشاكل وهو الذى لم نشهد صورته كما رأينا صورة الإنسان فينا . هناك فى المكان المقدس نحصبه بالحجر فى كل عام ونحصبه أيضا فى كل لحظة من اللحظات إذا استيقظ فينا الخير ، ولكنه يراوغ على فم قلمى الآن بوسوسة رهيبة يريد منى ومن قلمى أن أجرح كبرياء الإنسان وأن أهدم كرامته ! !

ومسارى الروحى مع هذه التصورات مسار لم تكن عليه علامات غير ما قالته الديانات وجاء بها الرسل ، فهى التى صرخت فى مقابر النيام أن استيقظوا وتأملوا وسيروا ! ! والسير على اليابسة فوق الصخور والجبال ليس هو السير الصحيح ، ولكن السير فى الدعوة الجليلة من

الأنبياء والرسل هو ما أحاول دائما أن أدرب عليه مطاياى وإن كانت عجافًا ، أملاً فى أن يهبط عليها الغيث فتربع ثم تدلج فيما وراء الجبل الترابى .

أبـوىّ :

لا أدرى وأنا أطرح عليكما السؤال أأنا مذنب وعاق أم أن فى رواحل الذهن من تريد أن يثيرها من مبركها طرح هذا السؤال ... ؟

أهذه الآفات الخلقية التى فينا نحن البشر ، أهذه الفهاهة التى فى أكثرنا ، أهذا الشذوذ العقلى والذهنى عن الإيمان بالأسمى هو غواية زلت بها قدم فى متاهات لا عودة معها؟ أهو الضياع عن الأصالة وعن الطهارة ... ؟. يوم أصغى إلى قراءات التاريخ والأحداث : يوم أزور هذا أو ذاك وأجلس على مائدة عقله وتفكيره وسلوكه تختلط علىّ الرؤية وتتهدم فى نفسى الصورة المثلى عن الإنسان الذى كرمه الله .

أأكون عاقاً ... ؟ أأكون قد تجاوزت قدرى إذا تساءلت عن الإنسان من يكون ؟ أهو من تحصيه الأرقام بالبلايين جيلاً وراء جيل ؟ أم أن الإنسان هو الذى تجود شجرته بأكرم الثمار وأن البقية الباقية من بلايين البشر هم أوراق الشجرة الإنسانية التى تذوى وتتساقط كما تتساقط أوراق الخريف تكنسها رياح الفناء فى جوف الأرض ولا أثر لها فى الطريق الذى مشت عليه .

ولأنى من هذه الأوراق ولست من ثمار الشجرة الناضجة التى تملأ فم السؤال شبعاً وريًّا أتركه حالماً بالجواب فى منامه على صدر هذه الرسالة ...... !! إلى أن يأتى الفقيه والمفكر فيوقظه من منامه على الصباح ، ولن يظهر هذا فى أفق إنسان أكل السبع مطاياه .... !!



الحركة داخل النفس تتوق إلى التعبير

أبـويّ :

فى طريقى إليكما لا ألبس حذاء من خارج نفسى ، ولا أرى فى الزمان والمكان أبعادًا أضع لها القتب فوق رواحلى ثم أقول لها سيرى ، فإنى أنوى الرحيل لأسائل الماشيات على أخفافها فى هذا الكون أو فى مدافن الزمن أبداً ، فسيركهذا ضياع فى متاهات الغبراء ، فلا بعد ولا زمان ولا مكان خارج نفسى وخارج جرمى ، فالأجرام الضخمة فى هذا الكون لا أنجذب إليها انجذابا أحمق ولا تنجذب إلىّ انجذابا أعمى ... وإنها وإن كانت مشاهد ومسارح لقوافل المارين بها عبر الخيال والتساؤلات تبقى آيات عظاما يستلهم منها الإنسان روائح الحكمة .. فربيعها لم يصبه الجفاف ولم تمحل تربته ، هى لم تكن من عابرات السحاب تنزل الغيث ثم تستدبرها الرياح ، هى للإنسان العاقل ميراث ، والميراث فى يد السفيه ماذا عنه .... ؟؟ لى مع الأيام والسنين حوار أتعب ظهور مطاياى وأثقلها حمله ، بركت بى فى منعطفات النفس ، وكلما حاولتُ أن تقف ثم تسير ضاعت المحاولة ،

فضربت خيمتى بجوار هذه الرواحل أستسق الغيث لأرضى العطشى والميتة أشجارها لعل صيبّاً ترسله سحابة من الوعى يثير الخصب فأستضيف قلمى ثم أورده مياه الغدير ، ومَنْ هذه حاله أتجوز عليه ملامة للائم ؟ لا أدرى ، ولكنى أحار فى مدينتى الخاصة ، كثيراً ما اختلطت علىّ الطرق والسبل فيها ، وكثيراً ما تداخلت الصور وتناقضت المواقف ، إذا رحل رواد الفضاء إلى ارتياد التراب والصخور فلى مع نفسى رحلات لو ركبت إليها سفينة الفضاء ملايين السنين سيرًا لا أجد قاعا يحط بى عليه ، وهنا مثار التساؤلات . أهذا الذى أحسه وأشعر به كسبى من الحياة أم أنها حاشية رهيبة رافقتنا من هناك ؟ وصارت ميراثنا نحن البشر ـ نكابده فى عسر هضم أم ماذا ؟

لا أدرى ولكن الحركة داخل النفس تتوق إلى التعبير ، والتعبير عماذا .. ؟ هاجس تستضيفه المخيلة وآخر تثير مطاياه وتقول له ارحل عنى بعيداً ، فقد مللت ضيافتك ، والضيف الثقيل أهو الذى تبرك به رواحله ثم يعفّى ظهورها ويظل حلساً يتسكع فى بيت مضيفه .. ؟ لا أدرى لو سألت الطائى وطلبت منه الجواب لقال لى كلنا هذا الضيف فى بيت الحياة نتسكع ، وقليل منا من قفز به جناحه قفزة العقاب متعالياً عن جرجرة السيقان وتثاقل الأقدام وحمل الأطيان على عاتق السرمدية التى لا تلد غير تراب ، لم تبن مصلى وتعل مآذنه الروحية والفكرية

والعقلية فى مفهوم الأمانة والقبول بحملها حين العرض ! !

أتحامل الآن على شيخوختى متكئًا على عصاى أدب دبيب الجرادة ، خطاى خطى الوليد ، ملامح الشفق هى ملامحى واصفراره هو اصفرارى ، وشمسى فى مغيبه آفلة غداً أو بعد غد ... أتساءل والتساؤل يعترضنى ماذا وراء الشفق ؟ أألام إذا تساءلت : من سيستضيفنى هناك أهو الكريم الذى لاكريم سواه...؟؟ أم ماذا...؟ أنا جائع وعار وخائف من المجهول ، ولا أدرى هل الجائعون هنا والعارون هنا والخائفون هنا ... ؟ تلاحقهم آفة السغب ويلاحقهم عام الرمادة ويلاحقهم خوف التقى سعيد بن جبير من سيف الحجاج ... ؟

أهذه الحياة جامعة تُدَرّس فيها فلسفةُ الموت والحياة والجوع والعرى والخوف والألم والشيخوخة والموت ؟ أهى جامعة من الشقاء والأشقياء أم ماذا ... ؟ حياة هى الموت ، والموت ليس رقدة لا يوقظك فيها الصباح ، أبداً وهنا معترك التساؤلات ! !

وأبى الذى حطنى هنا وتركنى وسط الغابة ألا أتساءل عنه متى عهده بى ؟ فعهدى به وبيومه لغز لم تستطع كل معارفى وكل معارف قصاص الأثر أن يخطّوا لى زمانه ومكانه من هذا الكوكب ، وعلى أية راحلة هبط وماذا عنه يوم صدر الأمر إليه ... ؟ أجاء إلى هنا يحمل معه رسالة وكل إلينا ـ نحن أبناءه ـ قراءتها على عوالم قدرت أنها فى

بعدها اللامتناهى لا تنالها يد العقل الإنسانى وفكره ؟ فقدم العقل والذهن لا قيد عليهما ولا مبرك تثويان فيه مثلما يثوى الجمل أو يثوى فى بطنه وشحمه ولحمه عقل أبت عليه الشهوات والبذاءة أن يتحرر ويلحق بقافلة العقول التى وعت رسالتها ودورها مع الحياة ، فأبونا الأول ما أعظمه وما أعظم دوره وما أكرمه على الله ، فرحلته إلى هنا هى الرحلة التى سارت من خلفها ومن أمامها حاشية الشموس والأقمار والكواكب ، ومشى كل منها فى مساره لايقيل ولا يأفل ولا يرفض دؤوب إلى أن تنتهى رحلة الإنسان ويقول له أجله مع الحياة قف لتتداع طوعاً أو كرها كل هذه الحاشية وينتهِ دورها ليبدأ دور من جديد معك أنت الإنسان .... ؟

أرى هذه الحالة وهذا المصير بمنظار لم تصنعه فلسفة أثينا ولا وثنية لم تُدْمِ قدم وعيها فى البحث عن الحقيقة لتخرج من ظلمة الجسد والوهم والخرافة إلى نور الله ... !

أعرابى ... جده أعرابى قال قديما :

« البعرة تدل على البعير والأثر يدل على المسير » كلمات بسيطة قد يراها إنسان العصر المادى سذاجة بدوى مشى خلف بعيره فى الصحراء وقال هذا منتهى قدرى مع الإيمان .

والبدوى الأب والبدوى الجد والبدوى الابن إذا تساءلوا ورددت

أصداء هذه التساؤلات قمم الجبال الكونية فى نفوسهم : أيهبطون خائفين مترددين جافلين من رهبة التساؤلات وصداها .. ؟ ... لا . ففارس بنى عبس ظل فارسًا على ظهر حصانه وسيظل ولن ينزل عن ظهر هذا الحصان إلا حين تنزل الحياة فى القبر وتفترق والإنسان كل فى طريقه إلى قدره ... صور أقرؤها من كتاب أبي ومن ميراثه وسأقرؤها فى رسائل آتية ...



الجواب يرتعش من ثقل السنين

أبـويّ :

لا أدرى أحاشية الألفاظ من حول القلم ، يوم تلبس زينتها وتعطر جيبها تغازله بذلك كى يبنى لها مخدعا فوق الورق ، جاءت متصابية فى عصر لا يعشق المتصابيات فأصرفها من حيث أتت وأقول لها : قفى أمام مرآتك وسائليها : أين ولى ذلك الشباب وذاك الجمال ؟ .

وعلى صخرة الوادى النفسى تتكئ الآن شيخوختى متصابية ، تخيل الأفق البعيد فى سمائها ، وتصابى الشيخ أمام ذكريات جفلن من شيخوخته أله من أمل أن تتعاطف معه هذه الجافلات فيضجعها واحدة واحدة على أوراقه ؟

ومضاجعة الورق من بنات الذهن أله فى مفهوم التجربة معنى أحضرته الذاكرة من مضاجع بعيدة فى أغوار التجربة ؟ لا أدرى ..... ولكنى أجفل بقلمى مع الجافلات فى فضاء النفس ، فما لم تحتمله الأوراق اليوم من ذكريات قد تحتمله غدا .

كم تتعثر داخل النفس التساؤلات وكم يقعدها السقم فالطريق

الذى مشت عليه الذكريات هو علة العلل فى خاطرى وهواجسى أذودها عن فم القلم خوفا من أن تحملها على أكتاف عاجزة عن حمل ثقل الطين الذى كلما حاولنا أن نعلى شرفاته انهار البناء وتداعت الشرفات ، فكل شرفة أطل منها الطين فى رب القصر ولم تطل منها أخلاقه على مشاهد هذا الكون الواسع اندثر.

وما لم أقو على دفنه فى هذه الأوراق سأدفنه فى تربتى ، وأبقى فى مبرك الجمل إلى أن يأتى قدرى فيوارينى التراب ، فكل مئذنة صاح عليها واعظ أو سيصيح لا يمكن أن يستيقظ عليها نائم لا مؤذن له داخل نفسه ولا واعظ ولا متسائل .

فى ذلك الوادى البعيد الذى هطل عليه الغيث وألبسه زينته ، لى ذكريات مع الشباب ومع الأمل ومع الفطرة ، أمنيتى أن أرحل إليه بعد فراق طويل وأضرب خيمتى على جنباته ليملى على ما عنده لى من ذكريات . ولكنى « الصَّيْفَ ضيعتِ اللَّبن » وذكريات الإنسان مع الزمان والمكان مطايا مشت ثم أناخها القدر فى مباركها ، وهل إذا عدت إليها أستطيع أن أفك عقالها فتمشى على هذه الأوراق كما مشت فى ذلك الوادى ؟ . هنا يضيق صدر السؤال لأن الجواب يرتعش من ثقل السنين .....

لا أتجاوز عتبة البيت إلى خارجه فتضيع من ذاكرتى أحلام جميلة

وسط الزحام فتصابي الذكريات فى قلب إنسان مثلى قد تمنحه ما تمنحه أم الطفل فى سن الرضاعة ما يروى ظمأه ويسد جوعه . فمتى فقد الإنسان أجمل ما فى ذكرياته ماذا يبقى معه ؟ لا شيء غير الجفاف الذى لم يبق لديه ورقة واحدة خضراء . وما لم أستطع أن أقرأه على هذه الأوراق أقرؤه فى أوراق داخل نفسى ، وما هذه إلا صدى لتلك . فلو اجتثثت كل شجرة من تربتى الخاصة وزرعتها هنا أتراها ستظل مورقة ؟ لا أتصور ذلك ، لأن أشجار النفس لا يغنى عليها حمام الدوح إلا حين تظلل فروعها المورقة التربة القاحلة .

فما هذه الخطوات ـ متصابية أو غير متصابية ـ إلا بروق بسمت فى مقدمة السحب لقوس قزح الذى طالما جمّل رقبة الإحساس والشعور بفتنته .

وعلى ذكرياتنا معه ومع الصحراء ومع السحب كم حاولنا أن يظهر فى سمائنا مبشرًا بالربيع والخصب ولكن قليلا ما أثارت الرياح داخل النفس سحباً مثقلة بالمياه ليكون فى مقدمتها بشير خير وفرح . . . .

وإذا عاقتنا خطايانا وذنوبنا واعتقلتنا فى مبارك موبوءة ، ألا نحاول أن نركب الأحداث والعبر وندلج موغلين فى أعماق النفس وفى أعماق الإنسان والتاريخ لعل صباحاً لا يطول علينا

السرى وراءه يشرق على نفوسنا لتشرق هذه على الأوراق . . . .
فتبنى ما تهدم على الجمال فينا . . . .

وإلى هنا تستريح القافلة من طول السرى إلى أن يطل عليها الصباح ....



بعيدة هى أعماق الإنسان

أبوىّ :

ما أكثر الآفات التى معنا وفينا ! ! ما أشد الحيرة على إنسان لا عون له من الله ! . عوالم كبرى من المتناقضات تلقى بظلالها وبملامحها على عقل الإنسان وفكره ! . دروب وعرة بين الإنسان وأخيه الإنسان تثلم القدم وتكسر جناح الوعى ! غربة ومتاهات لا دليل للإنسان فيها غير التجربة وغير الممارسة وغير هداية الله !

عقبات رهيبة لم تستطع البشرية أن تتجاوزها وتدك رقبتها ، قطيعة وبغضاء وكره هى العقبات التى لو تجاوزها الإنسان لكان له من منازله الأولى على هذه الأرض عوض يغيظ به غريمه ويذله بالسجدة الثانية ! !

فالسجدة الأولى هى التى غاظته وهى التى جئنا هنا لنبنى لها محرابًا فى هذا الكوكب ونشكره ، أستغفر الله عن الاعتراض على قدرنا مع هذه الحياة ، فالتباين فى ألواننا وفى لغاتنا وفى نوع تفكيرنا وشره أمعائنا وغرائزنا سبب لنا على هذه الأرض التى لا تساوى فى سعتها مع هذا

الكون الواسع مفحص قطاة ، هذا التراحم بالمناكب والتعاض بالأفكار والتعالى بمميزات وهمية ولا أدرى كيف السبيل إلى ذرى الجبل ؟ فالصعود إليه وأطيان الأرض هى قدمى وهى جناحى ، أمر مستحيل . فإذا تساءلت أين الجناح .. ؟ متى عهدنا به .. ؟ أفى كيسى الترابى من يجيب .. ؟ لا أتصور أن صيحاتى وصيحات أى إنسان يريد الجواب تائهة فى خرائب ذاتية ، أبداً ، ففينا ميراث من الأب الأول لم ينكسر جناحه ولكن من ذا يطلقه من القفص .. ؟ ويفك رباطه .. ؟ فأطيان الذات هى قفصه وهى قيوده وهى عذابه ، لا أضع هذا التصور على حائط من الطين ولا أقبل به تلقيناً وحكايات موروثة فكل تصور يقوم على هذا النوع من التفكير سهل على أى نسمة تهب عليه من رياح الشك أن تهدمه وتحوله إلى أنقاض وأتربة .. ولأن مسؤوليتى من نفسى فى هذه الغربة وفى هذه الحياة لا تقبل أن تغمض جفنها عن مشاهد هذا الكون وتقول لا أرى شيئاً بعيداً أو قريباً ، لو تنازلتُ عن آدميتى وعن تفكيرى وعقلى وعن هذه المسؤولية ورحتُ وراء من يجرجرنى خلفه بحبل الشك وبأمراضه الخلقية وأعطتنى الحياة كل مافيها من لذة ومتع ثم نقلتنى بأمراضى وعللى إلى مدفن الشك ووارتنى فيه جيفة فائحة عفونتها ألا أكون بهذه الحالة المزرية قد اغتلت آدميتى وعقلى وروحى وكل ماعندى من نزعة خيرة ...؟

أفى حاشيتكما التى جاءت معكما إلى هنا تمايز فى نقطة الارتكاز التى يقوم عليها بنيانكما المتكامل ؟ هل يد هذا فارغة من الوعى ومن العقل والحكمة مليئة بالتراب وذاك يده مليئة بمياه الوعى وبضوء العقل والفكر ... ؟

تساؤلات يمليها الشارع العام على فم القلم : هل الإنسان بفلسفته قد لامس الحقيقة وعبر إليها على طريق لم تعترضه فيه عقبات بنتها جهالته ... ؟ لا أدرى ولا أتوارى عن الطريق خوفا من أن يصرعنى الزحام عليه ، ولكنى أبقى فى مكانى أرصد الحركة والتغيرات الرهيبة فى ملامح الصورة التى تتظاهر فى كل لحظة على جدار الإنسان وطينته . والذى يرمى الحجر الثقيل فى أعماق الإنسان ويثير التموجات من يكون .. ؟ هذا هو الذى لو سرنا إليه على جناح الخيال فى مدد الحياة لما أنخنا مطايانا على بيته ، وقبل بنا ضيوفًا أو جواسيس نسترق السمع ، بعيدة هى أعماق الإنسان وأغواره ، لو نزلت فيها كل هذه العوالم والمجرات وتداعى الكون فى جوفها لما لحقت بالعمق ، فالذين حاولوا أن يقيسوا أعماقه ويخطوا ملامحه على جدار المدرسة النفسية أتراهم لحقوا بشىء .. ؟ أتراهم قاسُوا بُعدَه .. ؟ لا ...

أترانى بهذا تائهاً قد أخذتنى فكرة التعالى على كل شىء فى هذا الكون .. ؟ أترانى فى تمجيدى لكما وفى تعظيمى أمجد ذاتى .. ؟

أبداً ... إن من أعطت شجرته النبي والمصلح والمفكر ، إن من أعطت شجرته الجناح القوى الذى حلّق بالإنسان فى العالم إلى آفاق بعيدة ... إن من أعطت شجرته الجزاء والثواب وصار له دون هذه العوالم التى أبت أن تحمل الأمانة شأن مع الحياة والموت وما بعد الموت ، حُق لنا الفخر والاعتزاز بالانتساب إليه ،أقبل باختياركما وأقبل بكدحكما وأقبل بهذه الرحلة العظيمة ، لا أهرب هروب النعامة ولا ألوذ بالعدم نكراناً للتكليف ، لا ألوذ به عجزاً عن السير والصبر والاحتمال ، أبقى فى آدميتى مع الخطأ والصواب ، أسير مع الحياة حيثما سارت بى حريتى ، وإرادتى وعقلى ، فإذا اندثرت هذه الحرية وتعثر سير القدم الحر وتعطلت الإرادة وتظاهرت الرغبات عندى وسارت بى فى اتجاه الخطأ فلا أحد مسؤول عنى غير نفسى ، غير تعطيلى لكل ما هو كريم فىّ . وكما قلت لا أعرف زمانكما ولا مكانكما ولا أقرأنى التاريخ إلا القليل ن ذلك ، فالتاريخ الذى بين يدى جاءت به السنون حاملته إلىّ ، لا أدرى من خطه ومن فعله ، لا أعرف أمانة الكاتب ولا أمانة الأفعال ، كل ما لم يكن من السماء أشعر بأنه ثقيل فى أكثر ما فيه على المعدة !

فالعصور التى مضت بما فيها من فلسفات وأفكار وحضارات هل قامت ثم ماتت بكل ما فيها من غث وسمين؟ لا ، وإن قال لها هذا

العصر الذى نعيشه لا تلحق بى فتغرقينى فى أتربتك ... ! !
وما العصر؟ أهو ذيل القافلة البشرية يدنو من المغيب .. ؟ أهو طرف الحياة الآخر يطويه الفناء على هذه الأرض ليوم النشور ، هذا ما ستجيب عنه الأيام الآتية فى جيل أو أجيال .... !



مقيمٌ مع مطاياه ...!

أبــويّ :

فى أودية النفس وفى فلواتها أَثَرْتُ جمالى ، وسرحت بها أبحث عن الخصب والربيع ، ومع الأيام والسنين الطويلة ألقحت نياقى ثم ولدتها على قمم التساؤلات ، ولكن قليلاً ما درّ لى ضرعها . والضَّرْع الذى درَّ لم يملأ الكأس ، ظل عطشى يخادعنى معه السراب ، يجذبنى إليه فألتاع ، وهنا يضطرب الحمل فى جوف السؤال ويصاب بالعسر عند ولادته ، ورغوة الدر لا تأتى من ثدى جف ضرعه فصار إلى جلدة ميتة ... !

أحفر البئر وخوفى أن يموت ثدى الوعى عندى فلا ترتوى مطاياى تظل على الحوض مرزمة بالحنين من العطش ولا بئر ولا ماتح لها من قاعه عذب الشَّراب !! .

لو حصل هذا فلأنى ظلوم جهول ، ولكن لى فى المحاولة أن أقرأ اسمى واسم أخى واسم جارى فى هذا الكون من كتاب حملته إلينا يوم الرحلة الأولى .. ما هى الأسماء التى أشعر الآن أن أبكم أصم يعانى

داخل النفس عجزه عن أن يقرأها فيخونه البكم فيظل بكاؤه وأنينه وزفيره وحسرته هم التعبير وليس غير.... ؟ لا أقتفى أثر الشموس والأقمار وكل ما هو محسوس فألامسها باليد ، وأقول هذه هى الأسماء تعدّها لى أصفار بلا أرقام .. لا أقبل بهذه السطحية فهى أشياء كثيراً ما يراها الإنسان بالعين المجردة أو بمراصده العلمية ، وهذه الرؤية تعنى فى تصورى معنى الكرم الإلهى .

ولأنى بدوى هائم مع جماله فى قلب الصحراء فار بنفسه من فلسفة هذا أو ذاك مقيم مع مطاياه فى واد يستسق له الغيث أذرف دمعى هنا ، فوادٍ لا يهبط عليه الغيث عند هذا أو ذاك ولا يستسقيه لن ترد به مطاياه مياه الغدير ، قد يضلله السراب فيهيم وراءه كما هامت الهامة فى خرائب الظالمين .

والظالمون فى هذه الأرض من يوم هبط عليها الإنسان أين هم الآن .. ؟ أين حاشيتهم .. ؟ أين فلسفتهم الظالمة .. ؟ هل ماتت يوم ماتوا .. ؟ أم أنه سلوك يسلمه هذا لذاك .. ؟ وأن مجرى المياه المالحة والآسنة واحد ، وأن ماكان بعيداً فى التاريخ قريب اليوم فى ميراث هذا لذاك ؟ فظلام الأمس هم ظلاّم اليوم ، عفونة الأمس هى عفونة اليوم .. وأبى الأول يوم قرأ الأسماء وعُلِّمها هل كان بينها هذا التناقض بين الحق والباطل ؟ بين الظلم والعدل .. ؟ بين الفقر والغنى .. ؟

لا أتصور إلا أنه حمل الأمانة بثقلها وهمومها وجاء فى حالة من القبول والاختيار لا يحمل معه جبرية ولا كبرياء الطغاة والجبابرة ، أتصور أن لكل إنسان اختياره ومسؤولياته مع الاختيار .. ! !

لا أسرح فى الفلاة وحدى ، ولا أعفّى ظهور جمالى وأقول : «ظُهورُكُنَّ علىّ حَرَامٌ» .. فرواحلى هن اللاتى حملننى ويحملننى فى هزيع الليل وضحى النهار ، هن اللاتى يسامرن النجم البعيد فى ظلام الليل ويصلين فى ضحى النهار على ميت صلاة الغائب .. فالعصور الخوالى البعيدة ، لنا فى مدافنها أموات نزورهم فوق رواحلنا الذهنية لا لنشمت بهم ، ولكن لنعتبر ونتفكر ... وغداً أو بعد غد سيأتى من يزورنا ونحن فى مدافننا فى جوف التراب ويذرف دمعة على ألم الفراق ، ولكن هل للدموع مجرى غير مجرى النهر فى تربة الأرض أم أنها منه فى تربة الإنسان ... ؟

لا أتصور أن الدموع من مياه النهر أبداً ، ولكنها من مياه غير آسنة ، مياه لا ندريها ولا أحد يدريها غير الأب الأول هو الذى أتى بها معه ، لتظل تعبيراً غير تعبير الكلمات .. ومن عبرت عنه دموعه وبكاؤه ألا نرثى لحاله ... ؟

وفلسفة الدموع فى الرضيع ، أو فى الشيخ الكبير ، فى المرأة أو فى الرجل ، جناح انكسر فانكسرت معه هذه الدمعة أو هذه

الدموع .. والانكسار فى قلب الإنسان هو الانكسار الذى لا طبيب له ولا جابر غير الصبر والاحتمال .. ويقينى أن قلب الإنسان قد انكسر ، ولكن لكل قدرته على التعبير ، من البشر من يكون تعبيره وحشياً وخارجاً على رسالة القلب ، ومن البشر من يكون انكساره فى قلبه أحزاناً على منازله الأولى يحن إليها ويسعى إلى العودة فى مكابدة لا تعرف الملل .. !

وتوجسى وخوفى من هذه الرياح التى تهب داخل ذاتى أن تدفننى فى كثبان من الرمال فيحثوها القلم فوق هذه الرسائل أتجافى عن أكثر ما تحمله إلى هذه الرياح ، أنقل خيمتى فى كل لحظة من مكان إلى آخر وأبنيها فى المكان الذى أشعر أن الرياح هادئة فيه لعلى لا أجور فى رسائلى على نفسى ، فقدر الإنسان لم يكن حاملاً معه قيوده أبداً ، ولكن الإنسان هو الذى يصنع قيد نفسه أو لا يصنع .

فقيود الذات لم تكن حبالاً يفتلها هذا لذاك ، ولكن الرغبات الخارجة على الأمانة هى التى تفتل الحبال وتثقل رقبة الإنسان بالقيود ... وتجربتى مع نفسى هى التى تملى علىّ هذه الحالة ، ما أكثر القيود التى أثقلت رقبتى وضميرى فجئت إلى هذه الرسائل أحاول أن أفكها واحداً واحداً لعلّى أستعيد صحتى فتجرى بى سفينتى كما أهوى وأريد ! !

ما أردت بهذه الرسائل غير الصلاة في محرابها أصلي وأسجد لخالق ، ليتني بنيت لها محراباً داخل السريرة ! ! فصليت فيه ولم أصل على هذه الأوراق (ليت وليت غير مجدية) .

أمنيات تذبذبت بي في فضاء الأماني ثم تبعثرت تبعثر هذه الألفاظ فوق الورق .....



إنهم ضمور أنكر الفطرة ..!

أبـويّ :

لا أدرى هل غَيْرُ الإنسان له فلسفات وله آراء وله أقلام تخط وتجادل دون وجودها ودون معاناتها وآلامها .. ؟ أم أن الإنسان وحده هو رب المحاولة وهو الوحيد الظلوم الجهول وبقية الكائنات لا مسؤولية عليها ... ؟ لا أتساءل من مكان متعال أو شاك أو متذبذب فى رعونة لا إحساس لديها بالمسؤولية فقيافة القلم عندى لاتقص أثر لص هارب بالسرقة متى لحق به أصدر حكمه عليه دون مقاضاة عادلة ، أبداً ، أخط فى هذه الرسائل شهادتى على نفس واعتراف بنظرتى إلى الله وإلى الحياة وإلى أب شرفنا بنسبنا إليه ، أب حطنا هنا فراخاً صغاراً ، كفراخ القطا ثم عاد مغفوراً له من حيث أتى ، وهذه المغفرة هى ما نأمل أن تلحق بنا وتمحو خطايانا ـ نحن الأبناء ـ فأحكام الإنسان على أخيه الإنسان أحكام مخيفة ومرعبة ، قد يكون فيها تجاوزات على رحمة الله ، وقد تكون موحشة وقاتلة للأمل والفرح والهناء فآدميتنا التى أكرمها الله هى مصدر اعتزازنا وسعادتنا وانتصارنا على كل السلبيات ،

لم نقرأ فى كتب الديانات تكليفاً أعظم مما كُلِّفتَ به أيها الأب العظيم !

لعلى لا أكون مخطئا حين أشعر بالحيرة عندما أقيس أعماق وأرى ما فيها من جيوش لا حصر لها من التناقضات ومن الرغبات ، هذه الحالة سنظل مقيمين معها حيثما قامت الحياة على هذه الأرض والقبول لا يعنى الاستسلام فى مفهوم جبرى لا فضل فيه للكدح والمكابدة ، ولكن معركة الإنسان مع نفسه ومع هذه الجيوش ليست كمعركة قائد انتصر فى التاريخ البعيد أو القريب ، فانتصار الاسكندر المقدونى أو نابليون أو جنكيز خان ليس انتصاراً : إنما الانتصار هو أن يستطيع الإنسان بقيادة عقله وقلبه أن يقيم الصفوف وينظم الجند داخل نفسه ويقبض على كل خائن أو عاصٍ فيعدمه وإذا لم يستطع يبقيه سجيناً فى كهوف الذات .

فأرباب فلسفة رفض الحياة والتنكر للطبيعة والفطرة ليسوا فى تقديرى مكافحين ولا مكابدين .. إنهم ضمور أنكر الفطرة وتنكر للطبيعة وعق الأمانة وعق الأب الأول ورسالته مع هذه الحياة !! إنى لا أدعو إلى فوضى الرغبات ولا أرى لها حقًّا إلا فيما هو مباح شرعاً ، فنحن بشر نحمل مسؤولية الكدح والمكابدة ولا مكان لمن يتنكر لهذه الحقيقة فى شريعة الله ... والمشكلة عندى أو عند سواى ما حل عقدها القلم ، ولا أذن على مئذنة الفكر والعقل قلم واحد صلت وراءه

الإنسانية ولم تختلف عليه ، والخلاف أربك البسطاء من البشر وساقهم
فى سبل متباينة جيلا وراء جيل ، ورسائلى هذه اجترار لوجبة استضافنى
عليها وحدى زمن لا أتذكر عن يوم ضيافته شيئاً غير أنى لا أذم الضيافة
ولا أهجوها ولا أبرم بها ، فهى ضيافة كريم ماوقف على بابه سائل إلا
منحه العطاء السخى .. والسخاء والشح نقيضان ككل المتناقضات ،
ولكن الأضداد ، هى التى إذا تجاوزها الإنسان فى فهم لا يحنى رقبة
وعيه شك أو نكران أو حيرة سجدت فى مصلاه جبهة مؤمنة تعلو به
فوق فكرة العدم ... !

لا أخط هذه الرسائل فى ليلة الأحلام فيها جميلة ، لا أخطها وقمر
السماء ونجومها مضيئة لى دربى مع الحلم، مامعى من ميراث لم تقتسم
تركته عائلة مفلسة وتتشاجر عليها فى قطيعة لا لقاء معها ، فطريقى التى
تمشى عليها هذه الكلمات مثقلة بالقيود ، وهى فى تقديرى لم تكن
مستعصية على المحاولة لتجاوزها ، والتساؤل الذى تحضره لى حيرتى لم
يطلع فى أفقى طلوع الصباح لأرى ملامحه مع شروق الشمس وأتعرف
إليه ، وهذه الحالة فى يدى الآن ربابة لا قوس لها فأطرب وأغنى ..

فربابة البدوى وخيمته وجماله وغدير الوادى وظباء الفلاة فى يوم
الربيع عائلة ماعرفت السأم والقلق والضجر وما زارت المدرسة النفسية
ولا حملت لجمجمتها طلقة أردتها صريعة .

متى عَهْدُنا بالغدير والخيمة والربابة والصحراء ؟ متى عهدنا بمعاشرة الفطرة ؟ لا أدرى فالذاكرة عندى أصابها الهرم ، كلما حاولت أن تسير بى فى فضاء الذات وتملى علىّ ذكرياتها مع الأحداث والسنين الطويلة خذلتنى ومن تخذله ذاكرته يفقد وعيه للأشياء وإن كانت الشموس والأقمار فى مطالعها ...



لاشيء ينفي عنا حالة الاغتراب

أبـويّ :

لاتنوح حمائم الدوح على أغصان يابسة ولا يرميها رام تشجيه ألحانها ، فهذا الكون الذى تقاصرت عنه خطى عقلٍ أكله السبع ، ثم بال عليه فنبتت شجرة الإلحاد والنكران والجحود فى جمجمته .. ألا ننجذب إليه انجذاباً نتقى به المسغبة ونرحل إليه فوق مطايانا ؟ فهناك الرى والشبع .. ومتى ارتوت مطايانا وعلّت وشبعت استطعنا مواصلة الرحلة إلى منازلنا الأولى .. وهى منازل لم يستطع كل مافى هذه الحياة من غنى وشبع مادى أن ينفى عنا حالة الاغتراب عنها .. فبيتى الذى أخط فيه هذه الرسائل أغدقت عليه الحياة من ثرائها وزينتها الشىء الكثير ، ولكننى فيه غريب .. فهو بيت لا أشعر فيه بالسكينة والاستقرار .. وعلى بابه تقف الغجرية بربابتها تغنى اللحن الحزين وقصيدة الضياع ! !

فإذا وقع التناقض فى هذه الكلمات الحزينة فلأنى أشعر بتهدم رهيب فى بنائى الذاتى فأتحسس طريقى وسط الخرائب والأنقاض .. فما

هذه الكلمات التائهات والشاردات من رعب الحياة وذئابها إلا أسفار تطوينى فى كفنٍ لم أختره ولم أدر من الدفين فيه ، ولكنه يعضنى ويمزق أحشائى كلما نويت أن أفتح للقلم طريقاً منه يستطيع أن يمشى فى حرية مطلقة فى مسارح النفس وكهوفها ، لينقل أخبار القرن العشرين والقرون الخوالى التى حملها إلينا جمل لم نجد من يزكيه أو ينحره على الدرب الطويل مشى حاملاً على ظهره قصصاً وأفعالاً قال عنها التاريخ ، هذه أمانتى جئت أحملها إليكم فاقبلوها دون اعتراض ! !

والاعتراض بحد السيف على رقبة القلم سفك الدم غزيراً فجاء قرباً مليئة بالرعب أثقلت ظهر الجمل وقصمته ، وهنا لم يعد للقلم رقبة خوفاً من أن تقطع . فإذا تساءلنا كيف يستطيع التعبير دون رقبة « ودون فم » لم يكن خائفاً ، أين نجد الجواب .. ؟ أنجده فى سيف الحجاج أو عند مشعل الحريق فى مدينة روما ... ؟

لو سألنا رقبة التقى سعيد بن جبير من قطعك ؟ لقالت .. كلمة الحق ! . لو ساءلنا رقاب الحضارات ورقاب الممالك من قطعكن ؟ لقلن السيف الذى قطع رقبة التقى سعيد بن جبير ، فقطع الرقاب بالباطل هو الفأر الذى بدد سد مأرب وجاء بالطوفان ! ! ..

وقلمى الذى بيدى الآن يرتعش من الخوف ويتجافى عن استقبال الكلمات خوفاً من أن يُقطع رأسه فى عالم حضارة القرن العشرين ،

وهى حضارة طالت رقبتها وجارت وليس ببعيد أن يقطعها سيف العدل والقصاص ، وإن هربت فوق النجوم . فالسيف على رقبة الظالمين والجائرين أينما كانوا ! !

أبـوىّ :

أرفض كل نظرية تحاول أن تأخذنى إليها وإلى فساد فطرتها ولم تدر أنه بكما علا قدر الإنسان ونسبه فى هذا الكون ، والكون ماهو .. ؟ أهو أتربة ومجرات وعبث لا معنى له ؟ من ظن هذا وقال عنه لا شىء ، لا حياة فيه فقد أزرى بنفسه وفلح كبده العطش إلى الحقيقة ، وحتى نضع أنفسنا وقدراتنا فى ميزان هذه العوالم الكبرى لنحاول السير إليها إذا كانت لنا خطى غير مصابة بالكساح ومقيدة بقيود المادة وحانات غياب العقل !

فالحانة التى قيل إنها كانت رمزاً لعشق الحسن بن هانئ ! لو تساءلنا عنها أهى التى غاب فيها عقلا دولتى الأكاسرة والقياصرة .. ماذا سيكون الجواب .. ؟ من يقرؤه لنا من فوق قمم الجبال الكونية ؟ لا أحد غير العلم ، غير اكتشافات ماهو موجود ، ماهو فى جمجمة الإنسان ، أسوده وأبيضه وأسمره لا جمجمة مفضلة على جمجمة ، ولكن من البشر من أبقى جمجمته حجراً يسير على حجر وليس غير . ولكى لا يصاب إيماننا بالرعب وبالانكسار لنتذكر أن فى علمائنا عبر التاريخ

من تساءل وسار فى مسارح هذا الكون بخياله وعقله ، وقال فيه رأيه فى اجتهاد لم يكن متردداً فى تسجيله لآت بعده ... وفى تصوّرى أن هذه الرؤية وهذا العمق فيما بين جذور شجرة الوعى والفكر وشجرة هذا الكون التى تسبح فى الفضاء تدريب على السير إلى قراءة الأسماء ، ولكن ليس للزمان والمكان فى سرمديتهما وأبعادهما عجلة النفس اللوامة التى تلقى اللوم على مذنب لا تمهله لحظة استغفار وتوبة .

ولوم اللائمين للإنسان العربى والحضارة العربية والمفكر العربى وأخيه المسلم هو على تثاؤبهم الطويل ونعاسهم الذى أيقظهم عليه جناح لم يخلقه إنسان هذه الحضارة ولم يضع له قوادمه التى رفعته إلى أعلى فى سَوْرة علمية لم يكن لها شاعر قافيته :

قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ ....

ولكنها قافية : قفى أيتها الأمراض وقفى أيتها المسافات وقفى أيتها الطبيعة الخشنة ، قفى لنتعرف عليك ! ولنُصغْكِ فى ثياب حضارية جميلة تدلين بها على عظمة الله أكثر فأكثر .. وهذا مايتجه إليه الإنسان اليوم اتجاهاً فيه شىء من التعالى على من عثر بهم حظهم من البشر ؛ وما قالت عنه مراصد هذه الحضارة فى أسفارها إليه إنه لا حياة فيه وأنه أبعاد فضائية فارغة .. أنقبل بهذا ونقف عند موازينهم وأحجامهم ؟ أبداً ، فما قالوا عنه لا شىء ، إنه لا حياة فيه أنقبل به

ونسلّم لو حصل هذا منا لتكورت عقدة الوعى وصارت إلى فراغ لا إيمان معه ، هذا هو إيمانى وهذا هو عجزى ، وهذا هو ضعفى وتقاصر خطاى ، وإن كانت جناح الخيال ، ولعل الإنسان لم يكن المخلوق الوحيد فى هذه العوالم الذى ظن أنه كل شىء ولا شىء غيره ، ولكن مشكلتنا مع تفاسيرنا التى ضاق بها الفضاء وجاءت إلينا فى تراث حضارى يحاول هذا العصر أن يعزف عنه وينكر أحقيتنا ومشاركتنا فيما عنده .

تلوح لى من بعيد ملامح الإنسان العربى وأخيه المسلم فى أفق يطل منه علماء العرب على أجيال آتية يلقون عليهم ملاماتهم ويدفعون بهم فى تيار هذه الحياة سباحين لا خوف عليهم من الضياع فى أتربة الفضاء أو الغرق فى أعماق البحار .

لا أقول هذا من بيت ناثرة الودع على كف مفلس ظن أن ماحطته بيده يبنى له الأمل وهو منطرح يغط غطيط البكر فوق التراب . ولكنى أقوله من بيت ابن الهيثم والخوارزمى وابن سينا والرازى والبتانى وإخوانهم من العلماء ، أخيل المستقبل غماماً ممطراً على تربة الإنسان العربى من ذهن العالم العربى فيضاً إنسانياً لم تكدره فكرة التعالى أو فكرة العدم . أتصور أن ألفاظاً وكلمات كهذه لعبت بها فى النفس حسرات وآلام تجاوزت بى فصل الربيع الجميل فى قلب الصحراء إلى

الصيف . ولا أدرى كيف أختار لنفسى فى قلب الصحراء الواسعة مضرباً لخيمتى . فخوفى من الرياح الهوج وسط العاصفة يهدم خيمتى كلما أقمتها فى ذهنى . وإذا هى تهدمت خيمة الذهن فماذا يبقى الإنسان فى أسفاره مع الحياة من عثرات الطريق الطويل ... ؟

ومعذرة إذا لحقت بى فى كل رسالة من رسائلى صورة من صور الصحراء فهى التى ألقت على جدارى الذاتى صوراً لم تستطع هذه الحضارة أن تمحوها أو تهدم الحائط الذى هى عليه . فللصحراء روائح من الذكريات الجميلة يوم نمر بها فى منعطف الوادى أو فى سفح الجبل أو على جناح الروض والطير يغرد لها تسائلنا : أبقى لنا فى أودية الصحراء فسحة من العمر للبقاء معكم ؟ أم نقول لراكبة الجمل سيرى ولا تنيخى جملك على عصر ليس فيه حاتم الطائى ولا عروة بن الورد ولا قيس وليلاه .... ؟؟

أهذه الصّخرة المعلّقة فى الفضاء قيادة كونية ؟

أبــوىّ :

إن الشجرة التى لا أضع لحكمتها تصورًا فى ذهنى القاصر هى التى كان منها سلم التحول على هذه الأرض ! ! ولعلى من إيمانى بحكمة هذا التحول أصغى إلى غناء الحياة وفرحها فوق أغصان الشجرة التى نحن ثمرتها ونحن أوراقها ونحن خريفها وربيعها وصيفها وشتاءها ونحن مسراتها وآلامها ونحن من اختلفنا عليها لولا هداية الله لنا ، فتغريداتها فى فم الطائر أو فى فم الإنسان سفر وراء سفر مع كل مسافر أخباره ونظرته إلى الحياة صورة يرسمها ودعوة إلى أن يقف الإنسان على الصورة التى رسمها على حائط ذهنه وظن أنها هى المثلى وما سواها تجديف وهرش فى جسد الحياة الذى ليس له لباس واحد يستطيع مصمم الأزياء أن يقيسه على كل إنسان ! !

ما أكثر ماعلى هذه الأرض من آفات وآلام وعذاب ودموع تلد الإنسان ثم تغتاله وتسترده إلى جوفها ، مشاهد متكررة لا تأفل وتنطفئ هنا إلا وسراج الحياة قد أوقد الشمعة ، وهكذا نرى الحياة ونرى المصير

ونكابده فتقوم داخل نفوسنا أخطر التساؤلات وأكثرها تجاوزاً للاعتدال وللتفاؤل ، ولكن فينا نحن البشر من يقول لها : لا ، تراجعي ! !

ولولا ستون عاما هي عمري ولولا متابعتي لمشاهد هذا الكون ولفم الحياة الذي لا يرتوي ولا يعترف بالشبع والري ، لولا هذا كله ولولا مشاهدتي لمناطحة الرءوس بالأفكار وبالنظريات في الإنسان لما أذللت قلمي لذلة هواجسي وظنوني ، ولكن أيستطيع إنسان كائناً من كان أن يقول كل شيء في قبضة يدي وفي جيب معرفتي ؟ لو حصل هذا لو تظاهرت سحب من الجهام في نفسي وغابت عنها أقمار السماء وشموسها لبصقت على هذه الأوراق بلغة معبرة عن عاهرات وبغايا لا يُردن الشرعية ولا يهوين بيت المأذون ، وما أكثر ما في الإنسان من بغايا وحوامل من الأفكار سفاحاً .. ومن زكى نفسه فليتذكر أن السريرة لن تظل دفينة في تراب الذات لها موعد مع الحساب ومع العدل ومع الوضوح ، وما ضاعت على الإنسان أكثر القصص وأكثر العبر وأكثر مافي الرحلة الطويلة إلا لأنه دفن الحقيقة في سريرته وسط الأحجار والأتربة ولم يقدمها للإنسانية لتقرأها في صفوف الدرس على بشرية طال عناؤها وطال سفرها وعانى من أجلها النبي والمصلح .

لا أدري أأنا مذنب وعاق حين أحمل أثقل الأحجار ، وإن كانت

مجرات هذا الكون وأهوى بها على مافى أعماقى ليكون الدوى على قدر الزلزلة التى رجت راكدًا وجامدًا ، بل ربما متعفنًا من ملايين السنين فى كهوف النفس ؟ فقد عجزت كل العجز أن أقبل برحلة العمر على ظهر جمل قتبه مدم لظهره ، وخطامه عائق لسيره ، وقيده عائق لعضده ! ! لو قبلت بهذه الرحلة ولم أقم بأدنى محاولة لفك قيد الجمل وإرخاء الرسن له ليسير بى فى اتجاه أكثر بعدًا من سوق قريتى الذاتية لما حاولت أن أركب جواد امرىء القيس ، فقريتى درجتْ فيها قدماى على حصباء من الوادى الذى تلاعه لم يكن فيها مضيعة لوليد سارح بأغنامه أيمكن أن يكون من هذا الرمز مسار لعقلٍ ولبعدٍ لا يصل إليه جمل مشدود بخطام رهيب ولا يلحق به حصان مهما كان عدّاء واللجام عاض فى فمه ... ؟ لا مجال للمغالطة فى هذه الحقيقة فنحن هنا إذا لم نرخ للجمل خطامه ونفك قيده تظل مبارك مدركاتنا وعقولنا فى حظيرة الأغنام الجرب ، وماتشبيهاتى بسوارح الصحراء والماشيات وراء رعاتها فى هلع من الجوع ومن سطوة الذئاب عليها إلا لدنو نسبها من سوارح النجوم ، فلا شىء فى هذا الكون سائر به العبث .

إذا فتحت فاها ذكريات طال رقادها فى أعماق النفس ، إذا ضاجعت أحلامًا جميلة . إذا تصابت الألفاظ وزوّرت الجميل إلى دميم ، أنبقى مع التزوير ونزكيه ونقول عنه ما أجملك ؟؟ !

لا أحنى رقبة قوس قزح فى نفسٍ ليس فى سمائها سحابة ربيع . ألوذ وأتوارى عن طريقٍ ذكرياته فاتحة فاها تصفر فيه الرياح على قارعة الطريق النفسى .

لعلى فى أكثر ما أتى أو سيأتى فى هذه الرسائل لم يجنح بى الخيالُ وراء السراب فتضيع وتتبدد مشاعرى فتختنق روحى ، فخيال الشاعر غير التخيّلات ، هو إنسان تستجيب له قطرات يدعوها خياله فتلبيه من مكان بعيد ، وقطرات الذهن غير قطرات السحب ، هى تمطر من معلوم ، والذهن قطراته حتى الآن والإنسان يجهل منحنى الوادى فى ذهنه وفروعه ومصبه الذى أتت منه ، يقف أمام جمال الطبيعة والطير يغنى على أفنانها فيطرب ويتوق إلى أن يحاكيها وجدانه وتحاكيها عاطفته فيخونه التعبير وإن أتى وفى رقبته عقد صاغه خياله من النجوم لا أتصور أن شاعرًا عبّر عن أحاسيسه وعن عاطفته وإن كان « المجنون » أو « امرأ القيس » أو « النابغة » فالحركة الوجدانية ليست مادة يفتح لها الإنسان الباب على مصراعيه ويقول : هذا ما أحسه ، أبدًا ، الحركة الداخلية فى الإنسان ما جاء التعبير عنها فى أكثر الحالات غير مهذب وغير كريم إلاّ لأن الإنسان قلق ومنفعل وباحث لأشجاره الذاتية عن تربة خارج الذات ليغرسها فيها إن كانت شعرًا جميلاً أو كانت غضباً وانفعالاً وسوء فهم ... ! !

ولعل ما جاء به هذا العصر حقل من الأشجار نقله الإنسان من ذاته إلى مانراه اليوم فى الأرض وفى الفضاء ، ولا أدرى أهذه الصخرة المعلقة فى الفضاء قيادة كونية يدفع بها الإنسان فى مجاهل ماعرفها أحد غير إنسان هذا العصر... ؟؟



ربّما أثار جناح الطير غَيْرتى ...!

أبـويّ :

صراخى وأنا ابن يومى الأول يوم رحيلى من مضرب خيمتى التى بنتها لى قدرة الله فى أرض أمى ، هو صراخى اليوم ، هى أخذتنى على صدرها وقبلتنى فرحة بالوليد ، وهى أرضعتنى من ثديها الحب والحنان ، لا أتصور أن قطرة واحدة هبطت فى جوفى كرهًا أو حقدًا أو قدحًا أو بغضاء أو حسدًا ، هى لم تسقنى دماءً ، فَدَاءُ الكَلَب لم يكن فى صدرها أو فى نفسها هى لم تولِّد عندى رغبات شاذة ، ولم تضع بذرة واحدة لإفساد فطرتى ، هى جنين مثلما أنا جنين ، هى الحب الخالص .

وأمى هى أم لكل إنسان مشى على هذه الأرض ، إذاً ألا نتساءل فى حالة من الاحتمال والصبر وعدم الجزع أو الاعتراض من الذى أخنى على هذه الوداعة أو فى هذه الفطرة وهذا الحب ... ؟

فلُبَد .. عرفنا أن السنين الطويلة أخنت عليه وهاضت جناحه حتى صار مثلاً احتجتُ له هنا مثلما احتاج له غيرى ، ولُبدُ فى الإنسان هو

الذى يجهش بالبكاء ويذرف الدمع غزيرًا على جناح كان قويًا ثم انكسر.

وما أتصوره هنا وأبنيه ألفاظًا لا أثق بتركيبها ولا بجناحها الذى أحملها عليه لا أدرى فى أى مسار تأخذنى رياحى إليه ، ولكننى لا أعترض رياحًا تهز باشتدادها جدرًا من الطين قدّرتها حصون وأسوار كسرت الجناح وطوقت رقبة الحرية بطوق غير طوق الحمامة ! !

لا آخذ مسارى فى هذه الرسائل فى اتجاه مضاد لمسار هذا أو ذاك ، فليس فى قدرتى ولا فى ضعفى واحتجاجى على كل نزعة متعالية أو مغالية فى تصوراتها أن أكسر جناح طائر ظن أن جناحه هو الجناح الأمثل والأجمل والأعلى قدرًا . فما رأيت فى سيرى مع الحياة ومع الناس عبر التاريخ غير طعنات من يد هذا فى قلب ذاك متعالية عليه بفكره وبعقله وبمعتقده وبسلطانه . وما نصبتُ ميزانًا لأزن هذه الجروح وهذه الدماء وهذه الآلام ، إلا أنى مع طول المحاولة والسير الطويل لم أستطع أن أنصب ميزاناً لنفسى أثق بنزاهته ، وبثبوت قلب الميزان الذى أزن به ، فما أسرع ما تلحق البارقة بأختها والجائعة بفريستها والواقفة بالماشية ، وهكذا موجة تطارد أخرى من الرغبات والانفعالات والغضب والرضى من التحول من النقيض إلى النقيض ، فالذين نقبوا فى باطن الأرض والبحار وقاسوها بمقاييس العلم ، أو

الذين ذهبوا بعيداً إلى كواكب أخرى يطاردون قوافلها فى الفضاء بمراصدهم العلمية ، أتراهم أدركوا شيئاً ووعوا شيئاً وحققوا شيئاً نقف منه موقفًا متسائلاً ومنافسًا نحن البسطاء من أخرنا عن سير القافلة زمنا لا ندرى من الذى قيد حريتنا به ، وقال لا شىء غير أن تفتح عينيك لتستقبل ضوء الشمس صباحًا ثم تودعها مساء وتدخل فى الظلمة ، وهكذا ندب فى تفكيرنا وفى سير عقولنا دبيب الأرنب مدلين بألسنتنا أن قد أتممنا رحلة العقل والفكر ، نعم أقول : أنقف منهم موقفًا يذهلنا عن أنفسنا وعن حقائق روحية وإنسانية وعاطفية لم تكن عينًا للعلم ولم تكن قلبًا له ولا روحًا ولا حسًّا ولا عاطفة ؟ هى ما أخذتنى إليه فطرتى ورفعتنى إلى ماهو أسمى وأكبر قدرًا وقدرة عما يجرى اليوم فى حضارة هذا العصر ؟ ألى حق التساؤل متى أسعد ومتى يسعد الإنسان ؟ أسعادته فى قلق مركبته التى رفعته إلى الفضاء أم أن سعادته فى مركبته التى أركبته مركبًا دونه كل مركب فى تاريخ اللذة ؟ أتساءل وأضع تصورى أن لا سعادة ولا اطمئنان والإنسان لاهث وراء هذا كله ، السعادة أن تقف مع نفسك لكل جاذب يجذبك إلى خارجها فى هلع وجزع وشذوذ لا سامع لك ولا مجيب هنا السعادة .

قد أكون واحدًا من الذين لم تغير الحياة ملامحهم من اليوم الأول ، قد أكون فيما بين الكهف والشجرة والخيمة سارت بى قدماى

فى رحلات دعت إليها الحاجة وطورتها الظروف ، ربما حاولت أن أعايش الذئب وأن أتصالح معه ومع الضبع ومع الحية ومع الظلام ومع الوحدة ومع المجهول ، ربما أثار جناح الطير غيرتى وحسدى يوم يرتفع ويتركنى خافيًا لا أقطع أشبارًا من الأرض ربما ... وربما ....

والنجوم البعيدة والشموس والأقمار ظننتها قوافل كقوافل الصيد فتداخلت فيها رؤيتى وخطاى وتصوراتى ، وباقة الزهور وشجرة العوسج وشجرة الطلح وشجرة السدر ، وكل مافى هذه الأرض أو فى السماء ظللت حائرًا فيه حيرة رجل لم يخرجه منها غير رحمة الله ، زمن بعيد لا أظن أن ذاكرة واحدة قد استيقظت لما فى هذا البعيد فأدلى بشهادتها ههنا على ماكان .

ولكنى أشعر بأن ضالة الإبل تائهة فى نفسى حاملة معها أخبار الرحلة ، وهى ما أحث السير قبل أن أصل إلى المدفن فى البحث عنها فى مجاهل النفس ، لعلى أجد عندها خبرًا أو أخبارًا ، فما أنا بقارئ لغير مدرستى الذاتية . فأنا رجل أمى ومدرسة علم النفس قد لا تكون مفتوحة النوافذ والضوء والهواء ليقرأ الإنسان منها نفسه .

وما يعنينى فى هذه الرسائل هو أن أتعبد الله فى معرفتى له من خلال ودائعه عندى التى هى فقيهى وهى شيخى وهى معلمى وهى التى لا تكذبنى ولا تُزَوِّرُ علىَّ الحقيقة ، هى الكتاب المفتوح الذى قد أكون

مزورة وقد أكون كاذبة .

فعدوى لاهثًا فى الشارع العام أبحث عن لباس يسترنى لا أجد غير رقعة بيد هذا وأخرى بيد ذاك ، فإذا ألبسنى الشارع العام ثوبًا خلقًا مرقعًا أأكون به قد انسترت ، فالثوب الذى يسترنى ويلبسنى الأمل فى رضاء الله هو ثوبى الذى ألبسنى إياه خالقى [1] .

هذه طويتى وهذه نيتى وخطئى فيها وصوابى أمرهما إلى الله ... !



(١) رسالة الإسلام .

ويل لطائر جميل فى غابة الرُّماة ..!

أبـويَّ :

كم تساءلت والقافلة الذاتية تسير فى طريقها يقودها الحداة ويسرحون بها فى مجاهل الصحراء النفسية ؟ كل حادٍ ينادى قطيعه إلى الوادى الذى يهواه ويلذ له فيه ضرب خيامه ، أأأحنى رقبتى وأغمض عينى عن تطلعات بينى وبينها ركام من الأتربة والأوهام .. ؟ سوارح من الطيور الكاسرة الجائعة لكل عفونة خلقية تشم رائحتها من بعيد فتهبط عليها هبوط فكرة العدم فى جوف الخاسر ، حالة ذميمة لذمة لا أمانة لها لو قبل بها الإنسان .

فإبلى ورواحلى التى حملتنى من هناك من اليوم البعيد ولم يقذف بى يومى فى عتمة لا ضوء فيها ولا جمل ولا زاد هى ضالتى التى أبحث عنها لحظة لحظة ، لعل راحلة واحدة أو رواحل ترزم لى بالحنين الجميل ، ويفوق لى درها بالشراب الذى لا تكدره دلاء لا تسقى عطاشًا إليه إلا بثمن ، وقد يكون الثمن باهظًا وقاطعًا لرقبة الإنسان وكرامته .

لماذا أمشى حافيًا حاملاً بيدى مصباحًا ضوؤه خافت أتحسس على

نوره طريق وسط عتمة النفس .. ؟ وما النفس وما الإنسان وما الآمرات فيه والناهيات وما المطايا وما الحداة وما التساؤلات ؟ وما الرعب فى قلب الماشى وسط غابة لا حدود لها غريب كل ساكنيها عليه إلا ألغاز وأحاجٍ وعقد وتراكمات من الرمال البدينة أمشى عليها بقدم متثاقلة والمياه فيها بعيدة والرياح غير ساكنة ؟

لماذا هذا الهبوط فى أعماق لا أبعاد لها وأقمار السماء مضيئة وشموسها ونجومها تغرينا أن نظل على سطح البيت لا تحت سقفه .. ؟

أهذه القطرات التى تمر عندى خاطرةً تلو خاطرة مرور غمامة استدبرتها رياح لم تمهلها أن تحط من مياهها أكثر من قطرات هى بكاء ودمع غزير حملته رياح الندم على ماض تركته ورائى إلى غمامة حملتها السنون الطويلة والتجربة على هامتى فأمطرت مثل هذه الدموع وهذا الحنين من فم القلم الحزين ، دموع تبحث لها عن مجرى جديد وسط صحراء قاحلة ، ولكن هل فى إمكانى أن أحفر هذا المجرى وأدفع بمياه الندم والتساؤلات إلى جوفه ، هل فى إمكانى ؟ هل بقى لى من أجل أن أغتسل من هذا النهر وأتطهر وأصلى على جنباته ... ؟

هذه حصيلة تجربتى مع الملحدين ومع المتخاصمين والمتقاتلين بالكلمة ، هذه تجربتى مع الحياة التى أحمل عيوبها ونقائصها فى نفسى ، أحملها وأعترف بها ولا أرميها على هذا أو ذاك ، فلكل إنسان

طريقه ودربه الذى اختاره لنفسه فى حرية لا جبرية عليها .

لا يجوز لى أن أحمل ميسمى وأعدو هنا وهناك . أَسِمُ به هذا عاص ، وهذا تقى ، وهذا ... إلى آخر ما تحاول نزعات تلبس ثوب التقى أن افعلْ أن جرّحْ بقلمك وإن كان قلمًا ركيكًا كلَّ بدن لا يروق لك مرآه ، جرّحْه لأنه يجرحك ؟

ولكن عقيدتى لحقت بى فى آخر العمر وقالت لا تفعل ، قالت لى : من كان « بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » ، قالت لى أشياء كثيرة قالت لى على لسان كل من آمنوا بها وملكت عليهم وجودهم أن لكل فعل رَدَّ فعل ، فإذا ذهبتُ بعيدًا خارج نفسى الآن وحملت معى شيخوختى وناديت عليها ألا من يبارزنى ؟ أين يكون مكانى من التصالح مع نفسى ومع كل مافى هذا الكون من جمال ؟ والجمال من الذى يراه .. ؟ ومن الذى يتذوقه ومن الذى يطرب له ويلثمه فى قبل لا تموت على الشفاه .. ؟ إنه القلب ، إنه الإحساس والشعور ليت الإنسان الذى يتعذب ، ليت الإنسان الذى يتألم ، ليت الإنسان الذى يحار فى متناقضات الأشياء ، ليت الإنسان الذى لايحتمل عقله أن يخوض معركة الإيمان ويعطى تفسيرات لكل حادث يضطرب له القلب ، ليته يكون محايدًا ولا تبول عليه أبالسة التكور العقلى ، فما تكور قدم نهر جار وعجز عن الجريان إلا أسِنَ ، وتولدت فيه

الديدان . فالجريان والحركة والطيران فى أجواء النفس هو طيران فى أجواء هذا الكون ، وكل طيران أو جناح لا مسار له داخل النفس والتبصر فيها وفى منعطفاتها وتذبذبها وتململها لم أجده فى تجربتى فى خرائب الذات عندى إلا دفينا تداعت عليه حيطانه ، كم أعيتنى المحاولة عن حمل الأثقال عنه ! !

أفيمن يعيش هذه الحضارة وهذه المدنية ويشهد هذه التحولات العلمية والتفسيرات الكونية جهد يعدو معه عدو جواد امرئ القيس .. ؟ الجواد الذى لم أجد لى مركبًا أركضه هنا وهناك غيره ، ففارسه مع راكبة الجمل منازلها هى منازلى اليوم لم يتغير لى منزل ، لم أصعد إلى الفضاء على حصانى الخاص ، ولم أغازل ليلى أو بثينة من فوق السحاب ، أمشى حافيًا أو منتعلاً إذا جادت سنتى بربيع أمطرته السحب ورتعت فيه جمالى وقطعانى ، جلست على حافة الغدير أهذى بمثل هذه الكلمات العابرة من خيالى أو من سوارح نفسى الجائعة التى لا غدير لها ولا ربيع كربيع ناقة من قال لها : سيرى وأرخى زمامه ! !

أتجاهل كل مافى الحياة من زينة إن كانت فى الأرض أو فى الفضاء ، إن كانت فى عارية السيقان ، عارية الصدر ، إن كانت فى وفى وفى ، أتجاهلها لأنها زينة ، ولم تكن أصالة ولم تكن بدويةً ولم تكن شجرةً من أشجار الصحراء أو نبتة من نبتها جمَّلتها السماء بمياه

السحب ، أتجاهلها لا لأنى حجر من أحجار الصحراء ، أثلم كل قدم يمر به ، أبدًا ، ولكنى أسرح مع جمالى النفسية أذودُها عن كل مبرك يصيبها بالجرب ، فالحياة التى جددت شبابها فى عصر الذرة ، وفى عصر زيارة البعيد هل جددت شبابى .. ؟ ولماذا يرهبنى ويخيفنى وضع عصا فى يدى أدب عليها محدودب الظهر بعد أن كنت طائراً لا أخضع لشبكة حبّال ؟ لن تذهلنى كل معطيات هذه الحضارة وهذه العلوم وهذه الأسماء ولا يكبر شيء فى نفسى ولا يتعاظم غير الله فإذا كانت فلسفة الحياة ورحلتها بالإنسان على مطايا لم ندر ما ألوانها وما قدرتها على السبق فى الزمن الممدود ، قد بركت بكل ما عليها من أخبار وأسفار فى متاهات المجهول البعيد ، ولم يزحف جمل واحد ولو على ركبه لِيُسلّم لنا شيئا مما وراءه ، فقد وقف الزمن فى قلم المؤرخ وقفة كلها غصص لا يستطيع رجل العصر اليوم أن يقيسها بأكثر من أشبار فى عمر الزمن .

ما آلاف السنين أو ملايينها أو حتى بلايينها بالنسبة لما رقد فى جوف هذه الأرض من حدث أو أحداث جسام ؟؟ نحن هنا على هذه الأرض الكريمة الجميلة التى تسبح فى الفضاء تغيظ بجمالها كل كوكب ليس فيه جميلة وليس فيه جميل ، وليس فيه آدم وحواء ، قد أصابنا ويالالأسف فى أكثرنا مايسمى بمرض العصر ! ! أصابنا السأم والقلق

والضجر والهلع والخوف ، فى الفضاء وفى مياه البحار وعلى ظهر اليابسة ، مطايا مثقلة ظهورها بأحمال الفناء لو انطلقت من عقالها لماتت الحياة ومات الجميل ، فلماذا هذه العجلة ؟ لماذا يُزرع الفناء فى كل مكان فى الأرض والسماء ؟ لماذا لا يُزرع الحُب ... ؟ إذا كان للحب بذرة واحدة قد ظلت معنا على هذا الكوكب ؟ .

مواعظنا كثيرة وحبنا للحياة يفوق حب قيس لليلى ، ولكن ويل لطائر جميل فى غابة الرماة .... ! !



لا أدرى أين كان طريقى .. وعليه كيف مشيت ..؟

أبـوىّ :

أأحلامى هنا فى هذه الرسائل أحلام يقظة .. ؟ وهل فى فضائى الذاتى جراد منتشر أجدبت أرضه فحمله جناحه الضعيف على هذه الأوراق لعله يجد فيها خصبًا وربيعًا ؟ لا أدرى ... وجناح الجرادة أو جناح العقاب أو ناب السبع تتساوى فى الرمز مع المخلب المفترس والفم الذى يأكل الحياة ، متى غردت حمامة على شجرة الدوح أو على فرع نخلة كانت غريبة كغربة ذلك الطائر العظيم الذى قيل عنه صقر قريش ، فغربته أو غربتها أعندها لقلمى ضيافة تتسول الخبر وتسائل الطائر الشرقى لماذا هجر عشه ولماذا سبقته إلى هناك شجرة الشرق ؟ أهذا جراد منتشر أجدبت أرضه وعوى ذئبه ... ؟

أتساءل وليس لى مجيب أو مستمع لأنى فى غير تصالح مع كل مجيب . فالذين حملوا إلينا كل سؤال وكل جواب عنه أنا أتمنهم وشمس الضحى لم تدلِ بشهادتها على أخباره وأسفاره لنا .. ؟ .

لا أتعالى على ماضٍ بدنه ملىء بالحقن ، والذين يحقنون الأبدان

بمياههم ألا نخشى أن يكون من بينهم مَنْ ماؤه آسن لا يلذ لنا شرابه ، وإن كنا فى حالة من الظمأ لا أقبض بيد عسراء على قلم أعور قد لا يستقيم نظره فى مثل جرجرته لأقدامه على طريق شائك وعسير ... ! !

لى مع الناس ومع نفسى ذكريات ومواقف وفعل وضده ، هذه الذكريات . كنت قد نويت أن أطرحها على الطريق العام وأن ألوذ بالمثاليات وأتحصن بالسرية وأرمى عيوبى وكل عيوب على الدرب الطويل ليقرأها المارة . كم من مرة شحذت سكاكينى لتكون الطعنات مميتة ومفجرة للألم والعاهات عند هذا أو ذاك ، كم من مرة فكرت أن أنزع ثياب عمرو أو زيد وألقيه فى الشارع العام عاريًا ، أخلق له من الحبة قبة وأرميه رمْىَ المحصنات ! ! ذكريات أليمة عذبتنى وقالت لى لماذا لا تنتقم ولماذا لا تدخل التاريخ بها ؟ فلديك منها ومن ردود الفعل ما يضنى قلمك ويجعله يلهث كالكلب المسعور ينهش فى لحوم البشر ... ! !

ويوم حصل هذا ويوم أصابنى الصداع من تزاحم الذكريات وقفت ساهمًا شاردًا متسائلاً من أنا .. ؟ ماهى نوازعى .. ؟ وما هى وسيلتى لغايتى .. ؟ فكرت أن أفتح باب بيتى وأن أخرج إلى الشارع العام أستشيره . أبحث عن صديق ، عن حكيم ، عن تقى ، عن

ورع ، عن إنسان يلقى عليّ مشورته ، ولكنى تذكرت أن الذين فتحوا أبوابَهم وركضوا هنا وهناك عبر التاريخ يلتقطون الأخبار من أفواه الواقفين على السكك لا تحمل لهم غير قال وقيل . وهنا أغلقت باب بيتى وأحضرت أوراقى وقلت لها النار أولى بك ! ! ولكن العذاب الأليم لم يحترق مع الأوراق ، بل ظل يشتعل داخل نفسى يوحى لى بالندم ، ولكن هيهات أن أندم لماذا أندم .. ؟ أأندم على أن أكون كلبًا مسعورًا ؟ أأندم على قضاء الله فى الإنسان وقدره مع الحياة .. ؟

صحوتُ من رقدتى وتساءلت من أعطانى حق الوصاية أن أجمع فى ذاكرتى أوهامًا أو أحقادًا ثم أحكم بها على الناس حاضرًا أو ماضيًا .. ؟

كنت فى يوم من الأيام رقمًا شاحبًا ودقيقًا ، ثم سارت بى الحياة على مطايا يسوقها قدرى وحظى فإذا هى تنيخ بى على باب المسؤولية ، وتقول لى من مكانك هذا خذ طريقك الذى تختاره ولا أدرى حتى الآن أين كان طريقى وعليه كيف مشيت .. ! لم يبق عندى شىء ، كل شىء احترق ، وما أكلته النار لن يعود ، ولكن قد يأتى من يتساءل ماذا أكلتْ؟ وماذا كان وقودها ؟ وإذا تساءل فليتابع رماد تلك الذكريات ثم يكتب عنها مايشاء له خياله من مدادها ! ! أتوارى وراء الجدار الذى يطرح لى الظل صباح مساء لعله يقينى السهام فلم يعد فىَّ

غير العظام اليابسة .. كل شيء أو دعناه دفاترنا فى دورنا مع الحياة ، ولم نهرب وعلينا واجب قدر علينا ، ولكن الغربة والاغتراب بين الأهل والولد هما الفجيعة التى توقظنى عليها من منامى همومى ومعاناتى ! !

من الذى يصنع الهموم فينا ومن الذى يدلى بشهادته أننا فى هذه الهموم ، مظلومون أو غير مظلومين ... ؟ أهى القافلة التى مراتعها فى قيعان النفس وتلاعها محلويًا درها فى قدح من الطين ، كَدِرٌ كل مافيه وآسن ؟

أَلِى أن آخذ بهذا التصور وأبنى عليه خيامًا من الرموز لعل متعبًا أضناه السير فى هذه القيعان يقيل فيها ويمسى ، ومع الصباح يشد رحاله سائرًا فى دروب له حق الاختيار فى وعورتها أو لا وعورة ، فكل السائرين فى هذه الحياة لا قدر ولا جبرية تفرضان عليهم طريقًا لا يريدونه ، والذين ساروا على طريق الهداية أو الذين ساروا على طريق الغواية أو الذين ساروا على طريق الفضاء وراحوا زواراً للقمر ورادوا ماوراءه أَنُجادلهم ونقاضيهم ؟ ومن أى مكان ننصب نفوسنا قضاة وحكامًا عليهم ... ؟ لا أننى عدالة القضاء ولا أقبل بمسار حيث كان ويكون دون من يسائله ويقاضيه ، ولكن صاحب المسار فى مساره وصاحب القضاء فى مكانه أبينهما نسب عائلى عليه تَعْلَقُ بالرشاء دلاء مياهها عذبة لم تكدرها مستنقعات الذات وروائح الجيف التى لم تجد

من يواريها لشدة عفونتها ؟ هذا هو الحائط الذى يتداعى الآن بنيانه الذاتى بعد أن أعيانى تماسكه فى قريتى الذاتية التى بناها قَدَرى وهَدَمها أَجَلى وصانَها أو دنَّسها فِعْلى .

لا أبنى الأمل على كثبان رمال الدهناء وأتركه فى مهب الرياح ، ولكنى أبنيه على تساؤلات ماعاجت رقبتها إلى من يناديها أن لا شىء أمامك ، فمن لا يتساءل ويكدح وراء تساؤلاته إلى أن يقول له قدره : قف ! قد يقطع الرحلة القصيرة دون أن يرى شيئًا ودون أن يكون فى حساب الكادحين ، والكدح فى سبيل الأمل العظيم بالخروج من هذه الحياة نظيفَ الثياب هو هدف الرحلة ، ولأن الإنسان الكادح إلى الله لن يكون كذلك إلا حين تعصره آلام الحياة ومعاناتها وعللها فيحتمل ويصبر لأنه كادح .. ! !

ارحـــم مثقفَ العصـــر...!

أبــوّى :

كم فكرت أن أذهب إلى إحدى الجامعات فى هذا العالم وأقف على بابها بشيخوختى أمد يدى متسولاً المعرفة تسوّل شيخٍ لم تبق له الحياة من معين فى سن فتل الزمن أغلظ القيود على قدميه ! ! ولكن حارس الجامعة سألنى من تكون ..؟ أأنت واحد من الأساتذة ..؟ أأنت واحد من الآباء لطالب من الطلاب .. ؟ أأنت خبير فى معملك ؟ أأنت غريب ، جئت زائراً فآذن لك بالدخول ..؟ تبعثرت الكلمات فى خاطرى وتصاغرت أمام حارس الجامعة فكيف بى لو تجاوزته .. ؟ سألت نفسى أهذه هى الدنيا ، أهذا هو الكون .. ؟ رفعت رأسى إلى السماء فإذا شمس الضحى قد تعالت فى فلكها فظللت واقفًا أنتظر انحدارها إلى مغيبها لعل ظلام الليل يلبسنى رداءه فأعود من حيث أتيت لا أحد عرفنى ولا عرفت أحداً .. ولكن الليل لم يكن الذى يطارد الشمس ويلبسها ، فالليل لا شمس له فى رجل ظن أن الجامعة وحدها هى الضوء وليس نفسه وماذا أتعلم .. ؟ أأتعلم مهنة أقف عند حدودها .. ؟ أأتعلم لأكون

سباحاً فى هذا الفضاء بخيالى ؟

تساءلت ثم مشيت هائماً على وجهى فإذا الحياة توقفنى وتقول لى لاتغالط نفسك ولاتطاول الطويل ، ما أوتيت أيها الإنسان من العلم إلا القليل ، تساءلت ماهو حظى مِنْ هذا القليل ؟ فالجامعة لم يبنها النفط إلا بعد أن شابت لمَّتىِ ..... تساءلت وكانت الحياة معلمًا لم يضق صدره ولم يمش فى الأرض مرحاً لأن ورقة الجامعة فى جيبه ، قالت لى الحياة لكل إنسان قدم من الذهن ومن الوعى يستطيع أن يمشى عليه وإذا مشى لن أكسر قدمه ولن أقول له قف فهذا الكون بكل مافيه من طالع ومشرق هو معلم ولكن أكثر البشر ظنوا أن العقل وأن الوعى وأن الذهن هم من أثاث الجامعة وهو ظنٌّ ، رسالتى أن أنبّه إليه حتى لايقف كل إنسان وقفتك منكسر النفس على أبواب الجامعة ، فالجامعة ليست إلا الدرجة الأولى من السلم يصعد عليه الشاب الطموح والموهوب ، وماهو أهم من المهنة التى يقف عندها المتخرج من الجامعة ، هى الثقافة العامة التى تطل به على التاريخ وعلى الكون وعلى الإنسان وعلى الدين وعلى كل ماهو قائم أو متعثر فى هذه الحياة . أما صاحب الفأس الذى يحرث أرضه أو صاحب المبضع الذى يزيل العلة إذا وقف هذا أو ذاك عند هذا الحد ولم يمش متفكراً متأملاً متسائلاً عن هذا الكون البديع فعلى جليسه المثقف أن ينبهه لأكرم مافيه ،

ومثقف العصر لماذا نحمل على وعيه وعلى كفه دوراً تتلاعب بالألفاظ فيه غيوم ماطردتها الرياح وأفسحت للشموس والأقمار عنده الدروب التى لايضنيه السير عليها والإتيان بخبرها من رحلة لاتطوى الجناح على أعواد يابسة وتنعق بالنشاز من القول ..؟ والذين فكروا وقالوا وأرسلوا على ظهور مطاياهم من آلاف السنين نظرتهم للحياة وجادلوا فى خصام لم تخلب بروقه أو تصمت رعوده ماذا عنهم ..؟ وعن الإنسان الذى تأثر بهم وأقام من الطين والأحجار ومن الألماس رموزاً لهم ؟ أهذه هى الثقافة ؟ أهذا ما أراده المثقف ..؟ لا .. ثم لا .. ولكن إذا كنا نحن رعاة الإبل وجوابو الصحراء والذين لم نقم البيوت والقصور على جبهتها إلا حين قال لنا النفط تحولوا عن ظهور جمالكم وخيولكم وادخلوا فى بيوت الحضارة وأَدخلوا فيها ثقافة الحضارة . ! يوم فعلنا هذا وصرنا على درجات السلم هل رفعتنا أقدامنا وإلى أين ..؟ لا أدرى ولكنى أرحم مثقف العصر وأشفق عليه ! !

فى مكتبى أو فى بيتى أو على جناح الأحداث علمتنى الحياة أشياء كثيرة ــ كما أتصور ــ والكثير الذى علمتنيه الحياة أأزكيه وأحكم له ؟ أم أعلقه على حائط الزمن ليكون له الحكم لا أنا فليس فيما علمتنيه الحياة ملامح ثابتة لا يلحق بها التغيير ، فما فى هذه الرسالة أو أخواتها ألفاظٌ ملّها عاتق الشيخ فحوّلها إلى هذه الأوراق ليستريح هو وتستريح هى من

مكابدته لها . فالحياة ما أربكت سيرنا معها ولا جارت علينا فى أحكامها ، فهى الهودج الجميل الذى ركبناه اختياراً وقبلنا به ، وهو هودج ستظل الحياة حاملتنا عليه إلى أن يأتى قدرها مع قدرنا فنفترق كل إلى أجله ولا أدرى ما الذى يلقى على خاطرى فى هزيع الليل صوراً تتراءى لى أنها استقرت عندى ، ولكن حين يأتى الصباح تغرق فيه ، وما بين الصباح والمساء تنكسر ساق الوعى عندى فتنكسر لانكسارها إرادتى فأبقى عاجزًا عن الحركة واستشراف البعيد ، والبعيد لو كان لى فى حساب البعد وضده منازل علامات الطريق إليها قائم بنيانها فى الذهن لما عاد كل إنسان من الرحلة معترفاً بعجزه مسنداً رأسه بكفه من ثقل مافيه من هموم وحيرة .... ! !



لارى إلّا فى وادى قريتى ...!

أبـوىّ :

ماذا تعنى الحياة فى نفس الإنسان الحائر؟ وماذا تعنى حين تتحرك قدمه فى اتجاه فكرة العدم ..؟ ماذا بقى له من أمل ...؟ ماذا أمامه من هدف ..؟ أتساءل لا لأنى حامل قلمى على أكتاف من العصبية ، فأكتاف قلمى يهيضها جناح الطائر الصغير ، ولايعيبنى أن أتصاغر أمام العظيم حتى أشق على عينى بجهر هذه الحضارة أن يرانى من دقة النحول ؟؟

فعين مصابة بالعمى وهى ترصد فى لهاث علمى ثدى هذا الكون فى مجراته الكبرى والصغرى لم تستطع حتى الآن أن ترى حلمة الثدى الصغيرة التى كلما صرخ طفل رضيع أسكتته فظن أن هذه الحلمة هى الرى وهى كل شىء وليس غير، لأنه رضيع ولأن الحلمة تدفع فى فمه قطرة قطرة ، وهكذا إنسان لا يرى الحقيقة من خلال هذا الإبداع الكونى ، فثدى الحياة ليس شحيحاً وليس جافاً وليس فضوليا فى ألفاظه وتعبيره .

والذكريات البعيدة كلما هجع الإنسان فى فراشه يقظاً أو نائماً وناداها واحدة واحدة تثاقلت خطاها أو جاءت مسرعة متلفعة بالغموض ! !

كم من مرة مددت يدى لأقبض على الزائرة الجميلة لأبعث بها فى ثياب ليلة عرسها إلى العاشق المتيم بها والضائعة عنه فى متاهات الزمن البعيد غير أن اليد القصيرة والتى قليلاً مادخلت مع الله فى نجوى تتثاقل فتسقط تراباً على تراب ، وزائرة الليل أو ضحى النهار تعود فى خفرها لأن بيتاً خرباً تهدمت حيطانه لايروق لها كما لايروق لها أن تساكن بعلاً ذاته خربة .

ومراتع إبلى أو مراتع أغنام قبيلتى يوم أقص أثرها على درب الماشين عبر الزمن أحار عند آخر قدم أوقفهم عليه وقال قفوا هنا فما بعد هذا لاتتجاوزوه . ! وحيرتى لم تكن حيرة رجل يخيفه الخطر ويضنى قدمه السير ، فلو كنت هذا الرجل لما تساءلت ولما بعثرت أوراق الخريف عندى فى هذه الرسائل ! !

فالتاريخ الذى حمل إلينا هذه الخطى وقاس لنا الزمن وتعاظم وتعالى بفلسفة هذا أو ذاك أنحنى رقابنا له ونقول له : أنت الزمن وأنت الإنسان وأنت الأفعال وأنت الأفكار وأنت الحياة ؟ أم نثير فى سمعه تساؤلات قد تزعجه وتطعن خاصرته وهى خاصرة وإن بنت الأهرام

وإن أرسلت أثينا قائدها المنتصر ، خاصرة رقيقة فما هابت هذه الطعنة خاصرة إنسان ، وغداً أو بعد غد ، لا أحد يعلم غير الله ، متى تُطْعَن خاصرة هذا الكون فيجثو جثة هامدة لاحركة فيها ! !

تملى عليّ هذه الصورة أو الصور ذاكرةُ الزمن التى ركبت إلينا جناح العلم أو جناح الموعظة فاستقبلناها ضيفاً لايطيل النزول فى بيت هو الآخر يحزم حقائبه للرحيل ! !

والراحلون قبلنا أو بعدنا يوم تقام الخيام على مدافنهم ويضوى الراعى بقطيعه فلا يجد من بينها ضالة الإبل ، ماذا عنها وعن شيخ القبيلة وتساؤله أين هى ..؟ أنركب جمالنا ونرتاد الفلوات البعيدة والقريبة فينا ومنا نبحث عن هذه الضالة ؟ أتساءل لأن يدى فارغة من كل جواب ، فأبى وأنثاه يوم هبطا هذا الكوكب الجميل مليئة عيابه من كل زاد للمسافرين على ظهره ، أتراهما رأيا مستقبل الإنسان مع هذا الكوكب ومع مافيه من ميراث ؟ أتراهما أجازا له هذه التقسيمات لكبد الأرض وإن تصببت نزيفاً من الدماء ...؟

لا أدرى أهذا الهذيان فى هذه الأوراق هذيان إنسان تصور أنه واعظ وأن له مستمعا فصعد منبره يلقى مواعظه على جياع للمعرفة عطشى إليها ..؟ أتصور أن الجياع للمعرفة لايجدون الشبع والرى الروحى إلا حين ينصرفون إلى نفوسهم وإلى واعظهم الخاص ، فهو

وحده الذى قامت له قامة هذا الكون ومالبست برقعاً دونه ، بل ظلت سافرة له لم يفرض عليها الحجاب ، فهى فى مطالعها وفى مسارها كثيراً ما هام بها العشاق الكبار، وعشق قيس لليلى فى قلب الصحراء أو عشق رواد الفضاء لليلى القمر ألا نتجاوز به مفاهيم هى اليوم المثيرة لكل سؤال ما خطر على قلب بشر قبل هذا العصر؟ فآدم اليوم وحواء العصر منذا يستطيع أن يبنى أهرامات كبرى من التساؤلات عنهما ؟ فيوم أصغى إلى نفسى وإلى تجربتى وإلى معاشرتى وذكرياتى مع أختى وابنتى أو ابنة جارى ثم أرحل بعيداً إلى عالم بعيد ما عرفناه ولا قرأنا عنه قبل أن يحملنا إليه العلم فى رحلات فضائية أحاول بكل وسيلة من وسائل العد التنازلى أن يقبل به قلمى فلا يتصاعد العد عنده فتنكسر رقبته لأن الحياة فى سيرها بالإنسان لها خطاها الخاصة بها ولها قلمها الذى به تسجل لكل زمان ومكان رقمها وحسابها الخاص .

فإذا كان امرؤ القيس ذاك العربى قد ملَّ أن يكون لقاؤه بحواء على كثبان الرمال وأحجار الجبل فلحق بها فوق ظهر جملها وجعل من الهودج مخدعاً له ولم يسمح لها أن تنيخ الجمل أو تعوق سيره ، بل قال لها سيرى ، سيرى يا راكبة الجمل ، كيف بنا وبكل مافى تجربتنا ومافى علومنا أن نعوق الحياة عن أن تُركب امرأ قيس العصر جمل أنثى العصر؟ وتقول له ولها سيرا فى طريقكما إلى البعيد منكما والقريب سير

مركبة الفضاء وسرعتها ، فما بينكما وبين امرئ القيس وبدويته قبل ألف وخمسمئة عام خلداه ذكريات من قلب الصحراء وما أكثرها من ذكريات !

أأذرف الدمع غزيراً على الصحراء وأيام الصحراء ..؟ على أيام امرئ القيس وعروة بن الورد وطرفة بن العبد .؟ وهل إذا ذرفت الدمع وصليت واستسقيت السحاب أن تبكى غزيراً وتذرف الدمع على رمال الصحراء يطهر جبيها الآن ويبقى لى فيها مدفناً لايجاورنى فيه غير عربى وعربية ومؤمن ومؤمنة ؟ أمنيات صدعت رأسى طويلاً وفرت كبدى ، لا لأنى متعالٍ بذلك على عالم غير عالمى ، أبداً ، ولكنى فرخ مانبت ريشه ولا رفعته قوادمه ولاسارت به قدمه إلا فى مسار فارس عبلة ومكرم الضيف ، وحامى الجار والضعيف ، أولئك أهلى من مئات السنين وآلافها كيف لا أحن وأبكى طويلاً عليهم وإن لامستْ يدى ذوائب النجوم فوق مركبة سباحة فى الفضاء ..؟

أعلىّ لوم فى ذلك ..؟ فمشاعرى ليست بضاعة أتاجر بها فى سوق المتاجرة وأرابى مع المرابين ! !

لى مع نفسى هواجس وحوار لا يهدأ كلما أرسلنى عام إلى عام .. فالعالم الذى خلفته ورائىْ والعام الذى أستقبله كم خطرت لى خاطرة أن أحفر قبر اليوم الذى مضى وأدفنه فيه ، وأحفر قبر اليوم الآتى وأجلس

على حافته فى انتظار من يتزلى فيه ، وهكذا أنا فى آخر أيامى ولا أدرى أهذا أقصى مايكون التشاؤم عندى أم أن حبل المشنقة المعلق فى رقابنا نحن البشر يدُقّ لى جرس الإنذار لحظة لأختار لنفسى طريقاً أمشى عليه أطلب الأمان وأستجديه من طهارة الصحراء وعفة ضميرها ...؟

والضمير هل جفت وظمئت شجرته اليوم فى صحراء الإنسان ولم تعد مورقة تظلل المتعبين؟ لا أقبل أن أقطع هذه الشجرة من جذعها وأقول ماتت ، ولكنها تختلف فى منبتها من إنسان إلى آخر .. وهى اليوم مصدر حيرتى وتساؤلاتى عنها فى كل واد من أودية النفس التى حيرت الإنسان فأملت عليه هذه الحيرة سلوكاً أتعب القطيعُ رعاتَه فى الفلوات التى تقاسمها الإنسان، وقال لا خصب إلا عندى ولا رى ولا شبع إلا فى وادى قريتى ... !!

لاهو بكائى ولاهو خفقانُ قلبى ...!

أبـوىّ :

ليتنى أسجد وأجثو راكعاً على تراب بنى عليه الإنسان الأول خيمته ..! هى الآن قائمة فى نفسى تصورات تتداعى على خاطرى ، لو ركبت لها جناح الخيال وسرت وراءه ألهث لهاث ليل يطارده الصباح لما لحقتُ بأبعاد هذه التصورات !!

وما رسائلى هذه بِدَرٍّ فكرى أحلبه من ضرع غنى بالأفكار ولا رسائلى هذه بماشية على خطى قافلة أقص أثرها وألتقط من أخبارها خبراً وراء خبر ، أبداً ، عروة الكيس الترابى عندى تآكلت يوم عضها الزمن وأبلاها الدهر .. فسقطت من فوق وتد الجدار الذاتى عندى فتناثرت على هذه الأوراق وعلى هذه الشاكلة التى لاسنام لها ، بل هزال ما رعى الربيع جمله ولا روّى من الغدير ظمأه !! حنين السحب المثقلات بالمياه أو حنين مراكب الفضاء أو حنين خَلوج على حوارها ، لا هو حنينى ولا هو بكائى ولا هو خفقان قلبى ، أنا شىء آخر ، لى بكاء وحنين ترزم بهما نفسى فى تساؤلات ظمأى لاترويها كل مياه السحب

والبحار ولا تكفكف دمعها كل هذه النجوم لو كن أمهات ... وعلام أبكي وأحزن وأتساءل تساؤل الرجل الذى لايقبل بالسكون ولا بالقعود جالساً القرفصاء على أفواه السكك فاتحاً فم ذهنه لكل من هب ودب يرمى فيه صدقاته وحسناته ؟ فما فى كرامة الإنسان ولا فى كبريائه أن يظل يتسكع فى عرج عقلى وراء السراب والضياع ، ما أعظم مايثير الإحساس والشعور فى عصرنا هذا إن كان جبلاً من جبال الجزيرة العربية فى أيامى الأولى يوم تتناثر على جنباته أغنامنا أو جمالنا ، نصعد إلى قمته أو إلى قمة جاره ، وهكذا نتساءل عن عظمة الله وعظمة خلقه فى هذه الجبال وفى هذه المشاهد التى تضيق بها عقولنا ومفاهيمنا ، ونراها كل شيء .. كانت مقاييس ماقدرت الله حق قدره ومع الزمن ومع تظاهر العلم وتصاعده شيئاً فشيئاً فوق سلم الحياة واكتشافات هذا الرهج والوهج العلمى بركت بنا جمالنا الذاتية على أضراس حادة مؤلمة بكت لها مآذننا وبكت لها محاريبنا وقرعنا فيها كتابنا العظيم يوم قرّعنا العلم ! !

أفى هذه النجوم القريبة منا والبعيدة من تساءل عنا أين كنا ! أين كانت من عقولنا ومن تفكيرنا تلك الهداية التى لم تقل لنا أنتم تراب على تراب فلا ترفعوا رؤوسكم إلى فوق ؟!؟

من الملوم ..؟ من الباكى ومن الشاكى ..؟ أهو الإنسان الذى

أصابه اليتم أو بالأصح العقم فى عالم لم تضطجع جمجمتهُ وتغط فى رقاد لايقظة معه هى اليوم ترفع قَدْرَ الإنسان وتعطيه حرية الحركة الذهنية فى هذا العصر وتقرئه ماشاء له أن يقرأه من الأسماء . فإذا جاز لنا ـ نحن الذين نرقب الحركة مذهولين مما يجرى حولنا فى هذا العالم إن كان فى الأرض أو فى الفضاء ـ أن نتساءل : لماذا هم ، ولماذا نحن فى عصر فاجأنا وكل مافينا ومامعنا عبر سبيل ماقدر أن الحياة لايملك خطامها إنسان لايعرف كيف يصنع هذا الخطام وكيف يلبسه النافرات من الأسرار ؟ لا أبقى دائما مع الحسرات ولا أخلط الدموع والآهات على ورق الحياة اليابس عندى وأنتظر أن يكون لها جذع تقوم عليه أحلام اليقظة ، لا أحلام الرجال الكبار .... ! !

أنا فى هذه الرسائل أسير وحدى فى هذا الفضاء الواسع أحاول أن أجثو على ركبتى ساجداً متعبداً للواحد الأحد ، ففى النجم البعيد أو القريب فيما هو محسوس فى هذا الكون أو غير محسوس ، منظور أو غير منظور ، محاريب لنا ليس السجود فيها عسيراً علينا أبداً ، فجبهتى الآن فى هذه اللحظة ساجدة على تراب أبعد كوكب يشير إليه خيالى وذهنى وعقلى ، والسجود كيف يكون التعبير عنه ؟ لا قدرة لى على ذلك وإن حلبت لى كل النجوم وكل الكواكب والمجرات من ثديها شراباً وحولتنى إلى رضيع لها وحنت علىّ ، أبقى طفلاً عاجزاً عن التعبير ... أممكن أن

أتفاءل برحمة الله فقد تعذب الإنسان كثيراً هنا ، وضل فى أكثريته ضلالاً بعيداً . أليس هذا عقاباً ..؟ أليس هذا ناراً محرقة اشتوت فيها كل القيم والمثل عنده ...؟

لى أن أتفاءل وليس لى أن أتجاوز هذا التفاؤل برمى الإنسان بالأحجار وأضع له من عقلى القاصر مكانا تحاصره تجاوزاتى عليه .

نطرى بألفاظنا العائمة على سطح الذات الحياة التى تعاشرنا حيثما نحن وماكنا ونكون ونتساءل عنها أين هى ..؟ أهى التى تلقى بنا فى الشرك ثم نستقبلها منه فراخاً صغاراً ؟ أتساءل لا لأنى ضائق بالحياة يوم حنت ظهرى وحطت بيدى عكازاً يسندنى من السقوط على تراب الأرض .. أبداً فالذى أخذته منى أعطته لغيرى مثلما أعطتنى قبلهم ، والأدوار التى تقسمها الحياة وتختارها الأفعال يحار الإنسان فيها ، والحيرة لاتعنى الاعتراض على قدر الله وحكمته ، من أخذته الحياة إلى مصلاه وقالت له هذا قَدَرك أخلص العبادة أتراه ظن أن هذا هو سبيل كل إنسان ، أبداً ، فحانة الساقى .. كثيراً ، ماكانت مضيفة لهذا مثلما أضاف المصلى ذاك .. وهذا جدار سميك لايستطيع إنسان هدمه ، فمجرى الحياة غير مجرى وادى النيل ، ممكن أن تقام السدود وتقهر تياره ..

من تجربتى مع نفسى ومع مجرى الحياة فى هذه النفس أحقن قلمى

من مياهى الخاصة ولا أدعو أى إنسان أن يثق بهذه المياه فيظن أنها شراب مروٍ لظمئه ....!!

لقد تعبت قدماى وأنا أحاول أن أصعد الجبل فلقيتنى فى عرضه ذكريات بعيدة قد تكون سكنت فى قمته فلما رأت عجزى عن الصعود إليها قابلتنى فى أثناء الطريق ..

ظنون تتصبب ألمَاً وعرقاً من شدة المحاولة الرهيبة فى حفر البئر أو الصعود منه إلى أعلى ، وحياة لفها الغموض لا أتصور أن لها صورة ثابتة فى عقل بدوى يتابع كل حركة فى مسار هذا الكون فتعجزه قوافله عن أن يلحق بواحدة فينيخها ذلولاً لعقله ليلحق بالقافلة التى ماملت السير ولاجاعت ولاظمئت بحثاً عن المعصية ، طاعة وجباه ساجدة فى مسارها الذى قيل لها سيرى عليه وأرخى الرسن ، فالمعصية فيما بين راكبة الجمل وبين المغامر لاتوجد فى غير كوكبنا هذا والمغامر الذى أكتب هذه الرسالة من مضرب خيامه ليس معنا ، ليس فى عالمنا .. أأرثى لحاله وأبكى عليه فقد ضاع من يده كل شىء يوم ألهته عن دوره مالكة قلبه ؟ ولا أدرى كيف به لو ظل وريثاً لملك أبيه وليس غير..؟ أيخلد ؟ أتصل إلينا أخباره عبر الزمن المديد ..؟ لا أتصور ذلك ، ولكن الجمل الذى قال لها من فوق ظهره (سِيرِى وأَرْخى زِمامَهُ) هو الذى سار وسيسير إلى أجيال أخرى ..

ألابســــةُ العــــرجون ...

أبــويّ :

ألابسة العرجون مع غنمها عربية فى نحول قمر السماء يوم هلاله لم تعد فى زينتها فى قلب الصحراء لابسة للعرجون القديم ...؟؟ عطل معصمها منه وبار فى خاطرها يوم قيل لها : شبيه عرجونك فى كبد السماء زاره الإنسان ...!! ضوت بغنمها فى مساء يوم مقمر وقالت لأبويها : لم تعد لى الصحراء منازل آمنة كان القمر ، عرجونا أو بدراً ، أنيسى جميلاً فى طلعته كجَمالى عند قيس أو جميل !!

وقفت أمام بيت أمها وهى تطويه لترحل وتودع الصحراء وقفت تسائل شعاب الوادى ومفيضه على الروض الذى درجت عليه قدماها طفلةً وشابةً ورأت فيه ميراث أهلها وقبيلتها مئات السنين ، قيل لها تعالى واركبي الجمل احملى عليه هودجِك فليس بعد اليوم لك من جَمل ... ولا غبيط ولا وادٍ ولا غنم ولا حاجز ترعين فيه البهم أو أمهاتها . لم يعد لك فى الصحراء قيس وجميل !! تساءلت الصغيرة إلى أين نحن ذاهبون ...؟ لمن نترك ملاعبنا ومدرج صباى وصباك يا أماه ...؟ ما

الذى أخنى على الصحراء ؟ منذا يتذوق جمال الصحراء بعدنا ؟ مَنْذا يستروح الخزامى ونبت الروض ؟ ألا تتركانى هنا مع الظباء الجافلات ، فالمدينة كيف لى والحياة فيها ....؟

لحقت بى ذكرياتى عنها وقالت لى على لسانها : سجّل قصتى فى الصحراء قبل أن تدفنها الرمال ، وقصص البدويات والصحراء قصص لايلحق به قلم شاخت الذكريات فى ذهن حامله ، وتعثرت الصور فى خاطره ، وقلقت قلق سراب الصحراء ، وهل إذا سجلها قلم من أقلام الصحراء فى يد بدوى من قبائلها يبقى أحد يقرؤه ...؟ لا أدرى ولكن لن نودع الصحراء ونودع ذكرياتها يوم رحلنا على هودج هذه الحضارة وجملها ، ففى قفار الصحراء ربيع من مكارم الأخلاق ما لحق به خريف ولاصيف ، ربيع ورثه نزيل الصحراء من آباء له وأمهات عبر الأزمنة ، إذا عوى ذئب مسه الجوع ذبح له البدوى شاته قائلاً له : لا يجاورنى جائع وإن كان ذئباً ، بيت العربى فى قريتى أو بيت الشعر ما باع لقمة العيش لجائع ولا أغلق باب بيته أو أخفاه فى جناح جبل عن طارق ليل أو عابر سبيل ، مامشى حافٍ لامطية له إلا أردفه على جمله من يمر به ....!!

أعراف القبيلة وأخلاقها ماذا يقال عنها من مكارم الأخلاق فى القرية أو فى الصحراء من يقول عنها أكرم وأعظم مما قاله نبى الرحمة :

« إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » لم يكن حاتم الطائى البعيد فى علو جبليه أجا وسلمى إلا رمزاً لحاتم الأمس وما قبله ، ما أكثر من أَوْرثَهمُ حاتم أو فارس بنى عبس أو عروة بن الورد صفاته ! !

لو نطقت منازلهم فى صحراء الجزيرة العربية لقالت عنهم من الثناء ومن الحمد ومن التساؤل أين هم ...؟ وهى تساؤلات لاجواب عنها إلا من مدنية العصر وحضارته ومن التحول من المكان والزمان إلى مكان وزمان وَدَّعا الصحراء وأكثر مواريثها .

والوداع ليس فى الإمكان الاعتراض عليه لأنه ليس من أمل فيمن أدار ظهره ومشى أن يعود ، فالحياة هى المطية التى حملت الإنسان على ظهرها وسارت به سيراً بطيئا وخطوة خطوة عبر الأزمنة البعيدة ، وفى كل جيل من الأجيال اختارت له ما يلائمه من منازل وظروف حياة ، ومن اختيارها اليوم وغدا لمنازل الإنسان مالا يمكن معه لراعية الغنم أو رعاة الإبل أو عجائز الصحراء مثلى أن يعترضوا طريق القافلة التى لاهودج لنا مريحاً على ظهرها ، والسؤال الذى يجاهر باعتراضه على طريق يمشى عليه الآن ابن العربية الصغير وابن العربى أين ماكان ويكون ...؟ ما مكانه ما دوره فى حركة التغيير والتحول الرهيب ؟ ماذا عنه مع الحياة التى ودعتنا ـ نحن جيل الأمسِ وقالت أسلمونى صغاركم فقافلتى لم تعد أخفافها تتسكع فوق التراب ، أخفافى اليوم

جناح قد يكون سرعة الضوء بالنسبة لما هو آت ، قدماً تسكعت فى الفضاء . وما روض الإنسان حصانه الجامح أو جمله العاصى فى أيام الجمل والحصان والفارس إلا حين روض نفسه على قبول التحدى له من خشونة الطريق وبعد المسافات ، وما روض الخوف وهزمه فى قلب الغابة الموحشة إلا حين أبصر كل ماحوله من جيوش رهيبة سامة وغير سامة ذات ناب ومخلب ، أدرك هذا كله فاستنهض شجاعته وعزيمته وقال : هذا كوكبى وهذه أرضى وأنا فارسها وأنا مالكها ، ليس لى شريك يقاسمنى حبة رمل من رمالها هى لى وأنا سيدها ، هى هبة جليلة من خالق جليل وكريم بذلك جاوز الإنسان عقدة الذنب يوم بنى مسجده ومحرابه فى عقله وذهنه ، هذه رؤيتى فى الصحراء مع التجربة ومع الملاحظة ومع قراءتى للإنسان متى قابلنى على أى طريق بعيدة أو قريبة ، حصل هذا فيما قبل اليوم وإلى أبعد مكان درجت خطى الإنسان عليه ، وبنى خيمته فى أول منزل اختاره . هذا لم يكن خيالا عنه ولكنه حقيقة وإن كنا لا نعرف زمانها ولا مكانها ، والذى حصل اليوم على هذا الكوكب من تحد للحصان وراكبه وللجمل ومالكه وللإنسان الذى نادته الحياة من فوق تراب القمر وقالت له : أنا هنا وغداً لى محاولة إلى ما وراءه كيف به مع هذا التحدى الرهيب وهو فى ملابسه الذهنية الرثة أيقول لها : أنا مشغول ... ؟ وبماذا هو مشغول لو

ساءلته ...؟ أيقول : إنى عربى ألهتنى عن أصالتى المزايدات والشعارات فضاعت منى وهى اليوم فى ذمة الغيب ضالة لا أدرى هل أهتدى،إليها أم لا ....؟ خوفى على صغارنا ألاّ يرثوا منا مايمكنهم من قبول التحدى المعاصر ، خوفى عليهم ألا يجدوا فينا القدوة الحسنة ، خوفى عليهم أن يكونوا ذيلا لقافلة رهيبة لا ترحم ولا تؤمن بالرحمة لضعيفٍ دورهُ أن يتسكع خلفها متسولاً على بابها تعطيه مايسد رمقه وهو خارج البيت لاتقبل به شريكا ولاضيفا لأنها تجاوزت الأرض إلى الفضاء .

قد يقول قائل ممن يبنى من الطين والأحجار مايسمى مدارس وجامعات فى عالم العرب والمسلمين أن قد خذلتك شجاعتك وخذلك وعيك وخذلتك بصيرتك فى مثل هذه المغالطات التى لامكان لها فى غير عقلك الذى تخيفه الأشباح ! ! قد يقول قائل عنى : جاهلٌ ثقافته من الوادى ومن سراب الصحراء ما مدرسته ...؟ ما جامعته ...؟ من أساتذته ...؟ وإذا قال هذا من قاله فما أسعدنى أن أرى من يرفض هذه المخاوف التى يمليها الرعب والحب عندى ! ! ليتنى أكون هدفاً ويكون معى كل من تشاءم أو أخافته مفاجآت العصر على قومه ، ليت من يقول لنا من قومنا العرب يقوله من المكان البعيد ولا يقوله من مرقده وتسكعه فوق التراب ....! !

الحياة فى عصر غزو الفضاء أخلقت أشياء كثيرة من ثياب الإنسان

الذهنية وفلسفاته تجاوزت مفاهيمنا وراحت تلقى فلسفتها وثقافتها وعلومَها من فوق مكان أحسه ولكنى لا أستطيع أن أعبر عنه ، ماذا أقول عن حضارة عرتنى من كل شىء حتى أزارير ثيابى وحتى غرفة نومى صارت سكناً لها ، تقابلنى وجهاً لوجه أينما كنت وذهبت والمقابلة ليست متكافئة ؟

أتراجع الآن عن قذفى لمحصنات هذه الحضارة إن كان فيها محصنات لأنها بعيدة كل البعد عن فهمى وعن وعيي وعن منازلى ، أتراجع عنها حتى لا أزرى بنفسى فتقول لى : « قصير يطاول » سأتراجع لأنى فى شيخوختى لاتحملنى أقدام فتية فأقسو على نفسى وأستنهض حماسى فأقبل بالتحدى ، هذه الحالة ليست لى ولكنها أمل فى كل شاب من شباب العرب والمسلمين ، أمل فى أن تكون له حرية التفكير وحرية ممارسة الخطأ والصواب فى البحث عن الحقيقة واستنطاق كل سر من أسرار هذا الكون الذى يرفعه ويسمو به عن قطع يد تحمل القلم الذى أقسم به واهب الإنسان أسرار هذا الكون ! !

أعود إلى لابسة العرجون ، من أبكاها على صدر الصحراء : يومُ الرحيل عنها . مالبست عرجونها فى معصمها « لقيس وجميل » لتفتنهما فهما مفتونان بها لأنها من ظباء الفلاة ، أأرثيها وأقول على لسان الصحراء وداعاً لقد أخذوك من قلبى ليدفنوك فى مدنية العصر؟ وإذا

قلته وقالته معى شم الجبال ـ وقاله الربيع ، وقالته الأودية والشعاب والرياض المعشبة التى ترعين فيها بُهمك أأكون قد بكيتُ عليك وودعتك أجمل وداع ...؟؟ يتخاذل السؤال فى قلبى : لمن ستتركين قفارى بعد معاشرة طويلة ؟ فأنت أنيستى فى الصحراء ـ وأخوك الصغير يوم ينادى عليك : أن تعالى فقد ضوى الليل ، فلنضْو إلى بيوت القبيلة ! ! هل هذا منه وداع ؟؟



ظمئت الأفكار... فجاع العقل...

أبـويّ :

أوقع عليكما خلاف ..؟ وهاجت الأقلام من وهج الرؤوس الفائرة بالظلام والنور ..؟ ما قرأناه حتى الآن وقاسه لنا فى حبل الزمن رواد الآثار ورواد التاريخ ، طريق قصير يستطيع أن يقطعه الوليد مشياً على الأقدام ! فما هى الآلاف أو حتى الملايين بالنسبة لمن يتراءى لهم ثقل هذا الكون وسعته ..؟ أمن حقى أن أخوض فى أعماق وأركب التيار الهائج وحدى فى حرية لاقيد عليها من غيرى ..؟ إيمانى بالبحث عن الصواب وعن الحقيقة تعبير أحاول بكل وسيلة نظيفة أن أطهره من الدنس ومن العبث ومن وقاحة الرجل الذى لم يغتسل طيلة حياته بشموس هذا الكون ولم يطهر عقله من وحل أرضه الترابية. ومافيها من مستنقعات فائحة بالعفونة ، أتساءل ولا أقف حائراً بجانب السؤال كالوتد الذى دقه فى حائط من الطين إنسان لا يهوى أن تكون له ملابس معلقة على أوتاد هذا الكون ومجراته ، فيد عقله القصيرة لاتستطيع أن تمتد إلى أبعد من وتد علق عليه ثيابه فى حائطه الخاص

وقال لحليلته أغلق الأبواب والنوافذ على ملابسى التى اختارها ذوقى الخاص فما يهمنى انسترت عورتى أم لم تنستر ، لا ملابس لى غيرها .

يوم تجاوزتْ بى فكرة الرسائل كل عصبية أوجدتها ظروف وأحوال واجتهادات بشرية . ألا أخشى العثرات فى أثناء الطريق البعيد فأسقط فى شرك العصبية الذميمة .. ؟ هذا ما أخافه وأخشاه فى كل واد أحط رحالى فيه فالبطون الزمنية حوامل رجها المخاض العنيف حتى ملت الأنثى جنينها فطرحته على صخور القمر ! !

ومشكلتى مع هذه الرسائل لم تكن مشكلة آلة صغرى أو عظمى هندسها إنسان والتقط تجانسها من مادة هذا الكون ومن عنصر الأشياء التى سبقت الرحلة .

مشكلتى أن أخلص من تجاعيد الشيخوخة فى وجه هذه الرسائل التى هى وجهى وأخطها شابة شباب هذه النجوم فى مطالعها .. أمنيات ظللها الغمام وأمطرتها السحب فأربعت لها الحياة فى قلب المؤمن ، وهى لم تكن أمنياتى التى جاد بها الربيع على قطيعى الخاص فقليلاً ما أجد بينها راحلة يمكن أن تحملنى إلى حيث أريد .

هذا هو عذابى وهذا هو مسارى الذى لا أثق بوقع خطاى عليه ..! ! ولأنى عربى منازلى بين اليمامة والدهناء ... من آلاف السنين ، لى فيها مواريث يشق على أن أقص جناحها أو أن أثير المطايا

من مباركها والجنائز من مدافنها ، والماضى آخذه حاضراً والحاضر آخذه ألماً وعذاباً فى عالم لايرحم المتألمين ولا يرفع يده الغليظة عن رقابهم ، تطاردنى داخل نفسى قافلة آتية الآن من أقصى الذات تحاول أن تصرفنى عن هدفى من هذه الرسائل وتقول لى : هذه دموعى وهذه أحزانى وهذه آلامى ، هذا هو حاضرى وهذا هو ماضى ، هذا هو قائدى اليوم وذاك قائدى بالأمس ، خذنى رسالة مدادها دمى ودموعى وآلامى وحسراتى ، خذنى إلى من يقرؤنى ماضياً وحاضراً لماذا يتراءى لك أن نزولى ضيفة على هذه الرسالة عصبية ذميمة ؟ قالت لى أشياء كثيرة فبكيت لبكائها وانفطرت كبدى . أتجاوز مصائب أهلى وقومى وأودعهم وداعاً قد لايكون النهاية ، قد أراهم فى مكان آخر وفى رسائل أخرى ، قد تكون لى ذكريات خاصة معهم . لايعيينى أن أنصب خيمتى من جديد وأبنى بيت الشعر فى قلب الصحراء وأستقبل ذكرياتى قافلة قافلة لتملى علىّ صورة أو صوراً من القصص التاريخى لهذه الأمة العظيمة التى جمَّل البشرية أعظم رجل فيها ومنها من يوم كان نزيلاً فى كهف من كهوف الجزيرة العربية ، الكهف الذى مامللت فى رسالة من رسائلى ولا فى خطوة من خطواتى أن تضطجع فيه أحلامى وآمالى ، وأن ينظف قدمى العقلى والذهنى من وعثاء السفر الطويل فيه ، فغار حراء ودوره مع الحياة والموت مع الإنسان فى خطئه وصوابه

مع الكون ومجراته مع الظلام والنور ، مع الواحد الذى تذل له كل الجباه فيما هو محسوس ومالم يكن محسوساً هو رقم واحد ، كَلمتُه التى تنصب العدل على ميزان من الرحمة التى هى الرجاء فى مسح دموعنا وآلامنا وخطايانا ، وهذا الإنسان العظيم الذى أرسلته لنا الرحمة فى مطلع هذه الحضارة والتحول الجديد فى حركة الزمن وتثاقل خطاه فوق تراب الأرض ، هو الإنسان الذى قيل له : (اقتربت الساعة وانشق القمر) هو الإنسان الذى قال عن نفسه : (بعثت أنا والساعة كفرسى رهان) ألا نتساءل ثم نتساءل ونلح فى التساؤل ألا عابتنا ألا حقرتنا الشموس وصخور القمر يوم غابت عن عقولنا وعن أفكارنا مشاهد هذا التكور فى الشموس وهذا الانطفاء فى النجوم والانشقاق فى القمر ...؟ واخجلاه ! ! وأسفاه ! ! على قوم قيل لهم هذا وقيل لهم تبصروا فى آيات عظمى ولكنهم خفضوا رؤوسهم ورقابهم فى أكثرهم على نهود الجسد المادى وترابيته ! ! وظلوا يرضعون حلمته فظمئ العقل وظمئت الأفكار فغار الوعى ! ! أيمكن لنا نحن الذين لم نرفع رؤوسنا إلى فوق ولم نع هذه الآيات العظمى أن نستجدى منها نجماً نجماً وقمراً قمراً وكوكباً كوكباً أن تأتى معنا فى يوم المحاسبة تقدم لنا المعاذير متعاطفة معنا تعاطف أم رؤوم على طفل رضيع جاهل أن سامحهم يا إلهى فمنازلى البعيدة وعلوى فى الفضاء لايلحق به إنسان جناحه قدم من الطين

لاشيء غير الرحمة وغير الأمل العظيم أن تكون هذه الحالة الرهيبة خارج كفة الميزان العادل ولكنها أمل يظللنا برحمته ! !

أعلى ما أقوله الآن اعتراض ..؟ وهل سيأتى من يرى فى العصبية رباطاً أسرياً ...؟ لاجُناح عليه إذا جنحت به عصبية مليئة معدتها شبعاً ورياً منها !

ولأن الرسالة الإنسانية التى جاء بها الرجل العظيم طهرت يدها وضميرها وعقلها وروحها من العصبية أخذنى يتمى يوم كنت طفلاً صغيراً فاقداً الأب والأم أن رأيت فى أسرة قريتى عوضاً لى عن يتمى فدرجت بى مفاهيم هذه القرية القابعة فى قلب الصحراء شيئا فشَيئا إلى أن لم يكن شرابى كشراب صديقى أبى الطيب الذى قال عن نفسه: إنه شرب من ماء يُعجز الطير وردُه فشرابى مع الشيخوخة اليوم ومع التجربة ومع شعورى بيُتم الإنسان كله فى هذه الغربة أملى علىّ وسيملى حرقة إنسانية لايطفئها غير رحمة الله بالإنسان .... ! !

ألا يكون للطير إحساس.؟؟

أبوىّ :

على سنام الجمل فى أودية الصحراء كثيرا ما رأينا غراب البين يحط عليه وبمنقاره اللئيم وجناحه المشؤوم يأخذ بحفر غارب الجمل ، صورة لم تفارق ذهن البدوى ، فجمله الذى يحمل الأثقال ويقطع المسافات لم يعف سنامه قدره مع أجبن الطيور وأكثرها حذراً وبكوراً إليه والناس نيام .... عادة ألفناها وقاتلنا الغراب عليها حتى لا يفسد على راكب الجمل سنامه ويعيبه عن احتمال وضع القتب عليه . صورة حضرتنى فى الصحراء وغراب البين ينعق على عود شجرة ، أثارَ بنعيقه إحساساً كأنما هو ينادينى أين جملك الذى هذى مراتعه ؟ ما هذا الجمل الذى معك كومة من الحديد ؟ تتابع نعيقه على عود الشجرة فأثار فى نفسى صورة أعمق من سطحية الذكريات مع الجمل والناقة والغراب . ألا يكون فى اختياره لسنام الجمل والناقة نذير إلى أن هذا السنام الذى يبنيه الربيع والغدير من حشاشة كبد الصحراء وثديها الجميل قددنا أجله ؟ ألا يكون للطير إحساس يشم رائحة الأشياء وإن

كانت بعيدة ؟ ومن يدرى ؟ لنا أن نتساءل فيما لا ندرك ماهيته وليس لنا أن نصدر الأحكام دون برهان نقبض عليه بيد من الوعى والتجربة التى لا احتمال أن يكون لها بعل غير من عقدت القران عليه بنية الإنجاب والعطاء . قد يتساءل متسائل ماركب الجمل فى الصحراء ولا رعى إبل أبيه ولا أوردها البئر أو الغدير ولا متح لها على زنده الدلو المثقل بالمياه من قاع البئر كيف لغراب لا يملأ يدَ طفل ريشُه أن يتطاول على جمل وأن يذله فى أعلى منزلة من منازله ؟ كيف له بذلك ؟ ولمن تساءل وأبوه البدوى قد ترك الصحراء ومعه فجيعته عليها وعلى جماله أن يسأل أباه كيف هو والغراب والجمل فما أكثر ما عطل الغراب ظهره من هودج أخته الصغيرة . هذه حالة يعرفها البدوى وتعرفها البدوية وصاحبة الغبيط ...... وتسجيل مثل هذه الحالة لا يعنى حالة من حالات الصحراء فحسب ، ولكن مثلما لسنام الجمل وكبريائه من طائر مشؤوم كثيرا ما نعق على شعف السنام وأدمى غاربه إلى حد الخطر ألا نأخذه لكل جمل حيثما كان ربيعه وحيثما كان لونه ولون سنامه ؟ فغراب البين لم يكن هو الغراب الذى نعق على الشجرة أو أكل سنام الجمل وغاربه بمنقاره الضعيف ، ولكنه يظل غراباً حيثما كان ، إن كان فى حاشية الإنسان أو كان على سنام جمال هذه الحضارة . ليس لإنسان سنام لا يقع عليه غراب إذا لم تَذُدْهُ عين لا تنام .. ؟؟

أبـويّ :

ما أكثر ما أدمى غراب البين مهجة لبدوى أو بدوية ، بالأمس مررت بمنازله فإذا على جبين الحجر الذى أقعده عليه سقمُهُ قد خط (ألا يا غراب البين عذبت مهجتى) ساءلت الحجر وساءلت الرسم : أهنا قابل قيس راعية الغنم ؟ أأثنى على أيامها وأيامه هو؟ ليتها تدرى وليته يعرف أن أنينه وأن بكاءه وأن تساؤله عنها تحت ظل كل شجرة أو جناح جبل أو حاجب كثيب من الرمال أو تلة من التلال قد أكد الفضيلة وأكد الطهارة فى قلب الصحراء ، فقيس وليلاه لم يعودا ابنىْ القبيلة ولم يعودا ابنىْ الجزيرة العربية هما اليوم احتجاج على عارية الجسد وعاريه ، هما احتجاج على من تحولت قلوبهم إلى حجر ، هما اليوم فى قلب الذكريات يساويان كل ما فى هذه الحضارة من سرحان فى فضائها دون أغنام ودون صحراء ودون عفة وطهارة ودون مئذنة ودون مؤذن ....

أأذود الطير عن سنابل القمح أم أتركه يملأ حوصلته ؟ كم من مرة أقف وهو يقع على علو السنبلة يرتعش من الخوف يلتقط الحبات بحذر وبسرعة فائقة يضعها فى حوصلته والمقلاع فى يدى والحجر فى كفه وفى حالة من الإحساس بالشفقة على فراخه أميل عنه إلى حيث يأخذ رزقه وينصرف ، متى يوم هذا ؟ متى زمانه ومكانه .... ؟ ذاك يوم

بعيد ، يوم كنت صبياً تعلمنى ربة البيت معنى الإيثار ، وإن كان بى خصاصة .... يوم كانت تعلمنى ربة البيت أن عقيدتى الإنسانية تحرم على قتل أم الفراخ أو محاربتها فى رزقها ، ذكريات لا يجوز أن تطغى عليها ماديات العصر وغلظته وجفاف طبعه واستباحته لكل محرم .... ما أجمل الذكريات التى تعبر الطريق وتزحزح صخوره لتمشى عليه مكارم الأخلاق والفضيلة . هى أيام نقذف بها من ذكرياتنا فى وجه من قال للماضى إلى أين أنت ذاهب فى أحلامك الرجعية ، فعصرى عصر التقدم ... آخر ما يقال نعم ! ثم نعم أنا رجعى وسأظل رجعياً ، رقبتى دائما معوجة إلى الخلف وقدماى تسيران إلى الأمام فى خطى بطيئة وحذرة . وفى تصورى أن كل ما فى هذا الكون رجعى ، من ظن أنه مشى وأبعده سيره عنها سيعود إليها هو فيها ومنها ، ما معنى التقدمية ؟ وعلى مَنْ هذا التقدم ؟ كل ما فى الكون وفى تاريخ البشرية وفيما هو محسوس فى الأرض أو الفضاء يبقى رجعيا لن نفارقه ، وإذا ظننا أننا فارقناه سرعان ما نكتشف أن الظن خداع تتلاعب بنا ألفاظه .... لا أسرح بقطعانى فى أودية التقدمية فتصاب بالعدوى ، فنحن عرب الصحراء ما أكثر حذرنا من عدوى المرض ، وما أكثر ما سلمت لنا قطعاننا منه . فأمراض العصر وأوبئته لها واد ولنا واد والتقدمية أين نراها ؟ هل هى فيما أذنت به الحياة من أسرار إن

كانت معنا ونتعامل بها فى يومنا وغدنا ، أو كانت فى الآفاق البعيدة ، أم هى فى الإنسان ذاته ؟ فإذا كانت فى الحالة الأولى فهذه من رجعية الحياة السرمدية الأبدية والتى ربما ما معنا الآن منها وأصابنا الجنون والغرور بسببه لا يعدو بسمة طفل فى ساعته الأولى وإذا كانت التقدمية فى الإنسان ذاته فهذا ما لا يستطيع بدوى مثلى أن يعلق الجرس على رقبته مناديا عليه : أهذا هو الإنسان ؟ أهذا فى أكثريته فى أحسن تقويم ؟ الجرس المعلق فى رقبة الإنسان لا أدرى من يستيقظ عليه حتى لو علقت صواعق السحب فى رقبته ! !



زيـــارة جـــارٍ لجـــاره ..

أبـويّ :

ما أكثر مانويت حمل فأسى لهدم الأطيان عندى !! وحتى لا يكون الهدم بنيَّةِ الجائر على الطين فى الإنسان فى ألفاظ غليظة وجافة فيؤخذ على أننى أجدّف على طينته ، أعيد حسابى فى هذه الرسالة مع أطيانى الذاتية أزورها حائطاً حائطاً وبيتاً بيتاً ، والزيارة لم تكن مجاملة عابرة لقبائل رحالة فى فضاء الذات ، مع كل قبيلة من هذه القبائل حادٍ يحدو لها وضاربة دف ما أسكتته ولا نعس جفنه فى مرقد مريح ... !!

وهندسة البناء الذاتى هى أرقى هندسة وأعظم تصميم وأسخى مادة وأكرم لبنة ! فهذا البناء الذاتى الذى مادته من الطين وحركته ونشاطه الروحى مِنْ نزيلةٍ فيه لتكرمه كرماً إنسانياً لم يكرم به فيما نعلم سوى الإنسان ، جُرْمٌ قبل أن يحمل الأمانة ، ألا نسيرّ رواحلنا الفكرية والعقلية فيه لنبصر أعجب العجب وأدق الأسرار وأعظم مخلوق تظاهر فى هذا الكون بضخامة جرمه ودقة نظامه ... ؟

أَلا ننصرف عن كل شيء سواه ونثير مطايانا من مباركها التي اعتقلها الجهل واعتقلتها الأزمنة البعيدة بحبال رثة من التفكير ، وحثت عليها التراب حتى قاربتْ على البلى ، أتساءل لا لأخلط بين الشك واليقين فى مادة الإنسان وروحه ، فهو وحده الذى به وعليه تقع مسؤولية فك كل رباط معقد فى نفسه أو خارج هذه النفس ، هو وحده الذى تقع عليه مسؤولية زيارة كل جيرانه فى هذا الكون ! !

فرحلته إلى القمر هى زيارة جار لجاره صلة وبراً بالأهل والجيران ! ! ومن أخذ نفسه كما أتصور إلى مرآته الخاصة به ثم ساءلها كيف أسير داخل ذاتى ... ؟ ما هى الدروب والطرقات التى تروى أرضى الترابية العطش وتعطيها الشبع ؟ وما هى الدروب التى تحملنى إلى أن أرى البعيد ؟ أين مكان هذا منى وذاك ؟؟ فأنا ذات لى مع الطين نسب ولى مع الروح والعقل والتفكير كذلك نسب ... !

أتصور أن مرآة صبوحة الوجه مشرقاً ضحاها ستقول : طريقك إلى أرضك الترابية سهل جدا السير عليه ، إذا كان السير حَذراً من العثرات فى الحفر ومن الاصطدام بالصخور ، لديك طريق واحد إلى النجاة بهذا الجسد الترابى إذا أنت لم تغرقه فى مستنقعات آسنة فيتعفن ويصاب بعلة تجاوزت الاعتدال فأغرقت الأطيان . ستقول لك هذا وتقول أيضا : إن طريقك إلى البعيد ، إلى ما هو محسوس وغير محسوس ،

نزيل فى جمجمتك حبيس متى أطلقت قيده وسمحت للجناح أن يحلق فى فضاء لا حدود له هنا تكون قد تجاوزت أن تكون جمجمتك الغنية بالثراء الفكرى أحجار الجبل التى تناثرت على جنباته ، قد تقول لك إن سجدةً تخفض بها جمجمتك وتمرغ بها أنفك على تراب الأرض قد لا يدرك أكثر البشر حكمتها ومعناها العظيم وصلتها بالخالق ! !

فالذين أذلوا جباههم وحنوا رقابهم تواضعاً وأسقوا طينتهم دموعاً لا شك أنهم وصلوا وإن كانت الرحلة مضنية وشاقة ... ! !

أنا لم أكن فى هذه الرسائل واعظاً كالفضيل بن عياض ، أو الرجل الجليل ابن الجوزى ، أو غيرهما فلا منبر لى أعظ منه ولا مستمعين أتعالى عليهم بوعظى ! !

ما أحلته إلى القلم ليلقيه على الورق سرحان نفسى تجاوز بى باب بيتى دون حرية لى أو اختيار ، ذلك أنه ما كل إنسان بقادر أن يظل كل شىء قعيداً معه فى بيته لا يطل خارج هذا البيت من نافذة أو من باب أطال رب البيت إغلاقه ، أما إلى أين أنا ذاهب ؟ فلا أدرى ، أمشى على وجهى هائماً أتطلّع فى وجه كل من قابلنى ثم أتساءل أهذا آدم وتلك حواؤه ؟ هذا العصر الذى لم يُجِرْ خائفاً ولم يكرم ضيفاً ولم يصل رحماً عند أكثر البشرية ، منذا يستطيع أن ينصب له الميزان العادل ويضعه فيه ثم يصدر الحكم فى نزاهة القاضى العادل .... ؟

فى ذهنى الآن لهذا العصر صور قاتمة وأخرى مضيئة ، ولكنى عاجز أن أخوض المعركة حتى مع نفسى ، فلولا هموم الليل وتطاول هذه الهموم على راحتى واستقرارى لنامت هذه الرسائل الخاملة معى فى فراشى وصارت إلى أحلام يمحوها الصباح ، ولكن الليل البهيم فى قلب الإنسان الحائر مطالع للنجوم والأقمار تمشى فى مسارها متهادية فى كبرياء لأنها لا تحمل هموماً ولا يضنيها تفكير ، لأن الحياة فى الإنسان غيرها فى الموات والجماد ....

يوم أرقب النجم وهو ينحدر فى مغيبه ويضطجع على فراشه أحسده ثم أتساءل ألا تخشى الإنسان .. ؟ ألا تراه لاحقاً بك ... طال الزمن أو قصر؟؟

والإنسان فى حواء وآدم تجاوزت به الحياة استقراره وأمنه ، فهو اليوم وهو فى عصر غزو الفضاء مليئة جرته بالرعب . تقابلك الجميلة أم العشرين على طريق عام فتسأل نفسك إلى أين أنت ذاهبة .. ؟ وعند من ستجدين الأمان لك ولبيتك ولطفلك .. ؟ من هو الرجل الذى لا يحمل مسدسه ليغتال الجمال وليهدم البيت وليجهض من أم الجنين طفلها .. ؟

هذا هو العالم الذى تجرى به مقاديره إلى ما لا يعلم غير الله النهاية ... ! !

ما أكرم ذكريات القرية يوم كنا أطفالاً ! ! ما كنا نشعر إلا أن كل من فى القرية أمهاتنا وآباؤنا ، كل من قابلنا أو قابلناه قبّلنا كقبلة الأم ! ! ما أجمل حواء القرية آنذاك وآدمها ، ما أجملها يوم كانت تبنى خيمتها فى سفح الجبل أو فى قمته ! ! ما أجملها يوم كانت بدوية من آلاف السنين أو ملايينها تنزل الكهف أو تأوى تحت ظل شجرة أو تنام على كثبان الرمال فتناجى النجوم وتعاشرها فى منازلها ! !

ذكريات تتداعى على خاطرى وعلى قلمى تجاوزتْ بها سنة الحياة فى تطورها البراءة والطفولة والفطرة العامرة فى بنيانها المادى والروحى ، فلا شرفات تقام على قصر عاقبته الحياة بالتحول من ركوب ظهر الفضاء الواسع إلى قصر كل ما فيه خامل وراكد لأن نجوم السماء حجبها السقف الذى هندسه الإنسان من مادة الطين وقال لربة بيته ولأطفاله ولكل نزيل فيه تحضرنا لنعب الخيمة وبيت الشعر وكهف الجبل وشجرة الوادى وراعية الغنم ... ! !

جـريـح لـم يـنـدمل جـرحـه .

أبـويّ :

ما أبعد الصورة والتصور عن ذهنى الآن ، لا أدرى هل تجاوزى للمسافات الزمنية التى أجهلها ولا أعرف أآلاف هى أم ملايين ، بعد لا يلحق به خيال ؟ .

فالشموس والأقمار والنجوم التى لم يشخ شبابها كما نشيخ كم ساءلها الإنسان وكم بثها شكواه ، وكم غرق معها فى تساؤلاته التى أضنت عقله وخياله وكسرت نفسه وهو يلهث وراءها ، فهذا الفضاء لم يكن فراغا ولم يكن دميما بلى ملىء علق عليه الشاعر والأديب والمفكر والمتأمل حشاشة نفسه وخياله ولولا هذه الملحمة الكونية العظيمة التى رافقت الإنسان لتعطيه العطاء الروحى والعاطفى والمادى لو لم تكن هذه المصابيح زينة بيته لكانت رحلته إلى هذا الكوكب جوعا وظمأ وظلمة لا مسار لعقله وخياله فيها ....

هذا الكمال الذى لا يحمل معه خللا يوجد التناقض ماذا يلهينا عنه ويبعدنا عن زيارته على جناح الرصد العقلى والذهنى ؟ ماذا عن

إنسان يمر بالحياة ثم ينتهى دون أن يأخذ من حاشيته الخاصة إذنا لحظة أو لحظات ليلتقى مع هذه الحاشية الكونية ... ؟ لا أدرى أغثاء الوادى فى الصحراء هو غثاء الوادى النفسى لا أدرى كيف يرى إنسان صورته وهو يمشى على طرق ذاتية ما أمطرت عليها مياه السحب ولا غرست على جنباتها يد وعيه شجرة واحدة .

وبقائى دائما مع لا أدرى لأنى من غثاء الوادى ، فمجاهل الصحراء هى مجاهلى الذاتية ، وتساؤلاتى هى تساؤلات رجل حائر كثيرا ما اضطرب قلبه واصطاده فخ نصبته له الحياة فوقع فيه وقوع طائر خالية حوصلته ، وفراخه فى العش فاغرة أفواهها تنتظر عودة الأم إليها . جريح لم يندمل جرحه مع طول السنين أتعبيه تساؤلاته ، أتعبيه شيخوخته وهى محدودبة على محراثها داخل النفس تحرث التربة ؟؟ .

والقلق الذى يضطرب له قلبى كلما لاح بارق فى جبين سحابة أقف أخيلها لأن راعية الغنم وربة الخيمة وبيت الشعر سترعى ربيعها فى قلب الصحراء ماسببه ؟؟ وحتى لا يضيق إنسان بما تعصره يد ذهنية من ضرع شحيح فيتصور أنى لم أر العصر ولم أر مدنيته وحضارته فيجرح كبرياء الصحراء وهى الأصالة أرده إليها فوق الجمل والحصان وأقول له : سافر إلى علو الزمن لترى من أنت ؟ .. والجمال الذى تلثمه روحى فى هذه الصحراء ولا ترى شيئا سواه نسفح عليه اليوم دمعا ما ذرفته ثكلى

على جنازة لأنها الصحراء الجميلة رعت غنمها فيه الجميلة . ليت للدموع والبكاء مفهوما يأخذنا إلى مجرى النهر الذى فيه تتصبب هذه الدموع فنتساءل ما هذا النهر الجارى معنا ولماذا يتحول فى أكثر الحالات إلى دم قان وما بين الدماء والدموع ترهقنا الحياة فنلوذ بالاحتمال ، صور على جدار الحياة يلاحقها التغيير ونحن حيارى نرقب الحركة فهذا الشيخ الذى رقبته تلامس ركبه وهو يمشى خطوة خطوة فى زحام الشارع العام هل رآه أحد هل ساءله إنسان أهذا أنت من يوم كنت أم ماذا ؟ هل قدر إنسان أن ما عليه هذا الشيخ لاحق به غدا أو بعد غد ؟ .

أتساءل ولا أدخل معركة الحياة فى أطوارها مع الإنسان فى لحمه وعظمه فى غريزته فى جوعه وظمئه ولكن كم ألقت الحياة على خاطرى صورا عن ذهن الإنسان المحدودب الذى لم يستقم ولم يرفع هامته عن موطئ قدمه . هذا هو الإحباط فى مسؤولية الإنسان من نفسه ودوره مع الحياة . فقوس قزح إذا اعترض الأفق محدودبا فهو يعبر تعبيرا صادقا عن مياه السحب التى أنزلتها على أرض عطشى ، أما ذهن الإنسان المحدودب فماذا أنزل وماذا أعطى وماذا يمكن أن يخيله الإنسان الآخر فيه ؟؟ .

هنا تتعطل الملاحظة على قدم واقفة لا تسير خطوة واحدة فى اتجاه

البعيد وعلى قارعة الطريق الطويل داخل النفس يحط الإنسان رحاله ليستريح لحظة أو لحظات ثم يواصل السير إلى أن تقول له الحياة غادر المكان والزمان إلى هناك ....



انكفأت على وجهي بانتظار الصّباح

أبـويّ :

في هزيع الليل ... وقلق الحياة ... وعلى كثبان الرمال ، ورعاة الغنم والإبل ينادون قطعانهم من حولي حاولت أن أدفن وعي وتفكيري على وسادة رقيقة حواشيها من رقة الرمال .. فما رقت لي الحياة ولا هادنني القلق ، كل ما عندي وما فيّ صاروا حراسا لذود الرقاد وغفوة النعاس .. !

ورجل هذه حاله ماذا يفعل غير السير والحركة ... ؟ والسير ماذا يعني في مثل هذه الحالة ... غير سير الذهن ؟ أيكون على القدمين مشياً لا يقطع غير أشبار من الأرض ، ثم يصاب بالملل والتعب ... ؟ أتساءل لا لأنها اختلطت عليّ الرؤية ، ولكن سَيري في هذه المرة أيكون أفقيًّا أم عمودياً ... ؟ إذا أخذته أفقيًّا ورحت به مع الناس مع عالم البشر كما بنتهم التجربة والسنون في خاطري وفي ذهني تراجعت عنه لأني لا أثق بكل بناء وإن هندسه عقلي وفكري وزكته ملاحظتي وتجربتي ، ويوم تراجعت عن أن يكون السير أفقيًّا سيّرته عموديًّا ، فإذا

السير وهو فى سرعة الخيال لا يلحق بغير ذيل القافلة التى لا أحد قدر حجمها وسعتها وطول رقبتها ، تراءت لى النجوم والكواكب فى القبة الزرقاء ملامات يدلين باحتجاج رهيب على عقلى وفكرى ، تراءى لى أنهن بصقن على وجهى وذرفن دمعاً غزيراً ، أحسست بوخزات اللوم . بحرقة الدموع تفجر أحزانى وتبكى عقلاً دُعِىَ فى رسالته الإنسانية أن يرفع جمجمته وأن يرى البعيد ويفكر فيه بعقله .... انكفأت على وجهى حتى الصباح حياء من النجوم ، فلما ظهرت شمس الضحى أيقظت فى خاطرى صورة جديدة ماكنت أعرفها ، ولا أتصور أن أحداً عرفها غير القليل من البشر ، عودنا رقاد الوعى أو موته فينا أن نستقبل الليل كما تستقبله قطعاننا ، نراه ظلمة أو نراه غطاء لنا فى مراقدنا وليس غير ، ومع الصباح تأتى شمس الضحى فى مواعيد مؤقتة دقيقة لا تتخلف لحظة واحدة عن إطلالتها علينا ، تعطينا الدفء وتعطينا الحركة الدائبة فيما بين الليل والنهار نعاشر هذه الآيات العظيمات التى لا ينفد عطاؤها ولا تَمَلُّ فى تجوالها ... على عوالم واسعة لكل منها ما يمنحه الحياة ، وبالقدر الذى لا يحرقه ويشويه ولا يجمده ويحوله إلى صقيع فى بعدها عنه قيد أنملة ...

قد يأتى من يتساءل لماذا هذا الغرق فى التشاؤم ولماذا هذا الجزع عند رجل وفرت له الحياة كل ما يتمناه ، أهو ممن لا يشبع ... وإن

ضُبت كل آبار النفط فى جوفه .. ؟ لماذا لا يعطى تجربته الخاصة ؟ لماذا ولماذا .. ؟ لماذا لا يحرث مدافن أحقاده وآلامه وردود الفعل عنده من هذا أو ذاك ... ؟ لماذا لا يبقى فى حدود الإنسان وأفعاله وتاريخه فيكشف عورة هذا ويستر عورة ذاك لكى يكون له قراء ويكون له معجبون ؟ لماذا لا يرفع الغطاء الثقيل عن كل رجل تشويه من داخله آفات وعلل لا يستطيع أن يفتح لها نافذة واحدة ليتنفس الصعداء ... ؟

إذا تساءل من تساءل ، وظنى أن لا أحد يستحى إذا عابته أخلاقه إلا القليل من البشر ، فليس لمثل هذه التساؤلات عندى مكان فارغ أملؤه بها ، فأنا مشغول بنفسى وبندمى وبشيخوختى لأنى أحاول أن أصلى فى كل كلمة وحرف صلاة إمامى فيها عقلى وفكرى وهداية خالقى .. وقد يأتى مجتهد أو ماشٍ على جادة قدّر أن لا طريق إلى الله إلاّ هى ... فيعترض ، وهنا أُقَبِّل ما بين عينيه قبلة حانية على اجتهاده ومعبرة عن تسامح وحب واعتراف بالقصور .....

ما أكثر الكتب التى نزلت فى ضيافتى وسامرتنى طويلاً ، وهذه الكتب التى قصم أكثر ما فيها ظهرَ الإنسان وقذفه بأبشع النعوت وأثقل الأحجار ألها سبب فيما تعانيه البشرية اليوم ؟ ألا يمكن أن تكون هى التى صنعت البندقية والقذيفة والرعب والخوف ... ؟

تصور لا يُدلى بشهادة تدين هذا أو ذاك ... ولكن الرقاب التى قطعت وتقطع ، والأجساد التى تمزقها القذائف ، والعامر الذى يُهدم ، والرعب الذى ينتظر الإنسان ، ألا يمكن أن نُحَمِّل ما حملته إلينا الأزمنة من قيل وقال وتجاوزٍ على الهداية إنساناً صار إلى ضبع .... وحية سامة ...؟

حصان امرئ القيس كم حاولت أن أكون فارسه لأركضه هنا وهناك ، ولكنى تهيبت ركوب حصان دربه فارسه الِكْندى على الكر والفر ، وعفّى ظهر ناقته مِنْ وضع القتب على سنامها ، والجمل والحصان هما ميراثنا فى قلب الصحراء ، وهما فخر واعتزاز فرساننا الذين حملتهم من قلب الصحراء إلى أقاصى قارات ثلاث ... لا أظن أن إنسانا سجد قبل أولئك الفرسان على تلك الأرض ، والسجدة على تراب ماذرف تقى دمعه عليه مِنْ قبل سجدة بكر ألا نطيح بكل كبرياء وبكل قامة فارعة على تراب الأرض نعفر به جباهنا وأنوفنا ، لكى تكون لنا كبرياء ويكون للسجود معناه العظيم فى كدحنا مع الحياة ... ؟ قد يتساءل إنسان متخشب كجذع النخلة ماذا يعطينى السجود وماذا يعنى وماذا .. ؟ وتساؤل مثل هذا لا أظن أن جواباً عابرًا كهذا يستطيع أن يبلل خشبته اليابسة والمسوسة ! !

إن الذين أعطوا للسجود معناه العظيم فى نفوسهم ، لو سألناهم

أين أنتم لحظة السجود لقالوا لنا أشياء كثيرة نقلتهم إليها هذه السجدة فى سمو وعلو ما عرفتهما تجربتنا نحن « غثاء الوادى » ! ! -

ما أكبر حظ محمد بن القاسم . وقتيبة بن مسلم . وطارق بن زياد . وموسى بن نصير ! ! ما أعظم خالد بن الوليد ! والمثنى بن حارثة الشيبانى ! وأبا عبيدة بن الجراح ! .. ما أعظمهم وأعظم جنودهم ورجالهم !

فالسجدة البكر للخالق على أرض بكر لم يناد فى أوديتها منادٍ « حيَّ على الصلاة » قبلهم لسجدة عظيمة ، ليتنا فى عالم غزو الفضاء نحسن السجود للخالق يوم نقلتنا مطايا العلم وأخذتنا إلى قارات بعيدات سابحات فى الفضاء ، ما أكثر من أعفى جبهته وأنفه من هذه السجدة اليوم ! ! وتجاهل سرها العظيم !

رهبة الخوض فى بحار النفس ومستنقعاتها تغطنى فى أحلام زائرتى فيها لم تسفر لى عن وجهها لأراه أهو جميل أم قبيح ... ؟ وزائرة الليل لمتعب مثلى كيف لى معها ؟ .. أأمزق الحجاب ويدى يهيضها عصفور صغير لو حط عليها ثقله .. !

حائر لا أدرى أأبقى معها فى مضجعى أم أهرب هائماً وراء أحلام اليقظة ولا أعود إلى مخدع لا أعرف زائرتى فيه ؟ ... فحجاب زائرة الليل أو احتجاب السريرة كم عذب الإنسان وأرهق عقله وروحه .. !

لو أنّ مراكبهم رَحلت على مطايا من الذوق ...

أبـوىّ :

بالأمس ، وبما قبله ، تلاقينا ، فئة من الأصدقاء ، على التساؤلات وعلى زرع الحياة فى كل مكان فخاخاً ما تجاوزها إنسان ولا نجا منها مفكر أو جاهل ، صغيراً كان أم كبيراً ، وكان الجدل حول هذه الحياة وما فيها من متناقضات فى فهم مجادل حاد الطبع قليل الاحتمال والصبر ، كل فرد من هذه الفئة ركض حصانة على درب الحياة الطويل وقال منهم من قال : إننى جثة أسير إلى التبدد والتوزع والتمزق تراباً جسدته فىّ الحياة نُصُباً على الطرقات الزمنية وملأت هذا النصُب بالجوع والظمأ للدماء وللذة وللقطيعة ولركوب ظهور الهموم تسير بنا حيثما تشاء لنا أقدارنا ! ! وما ضجرت فى حياتى أكثر مما ضجرت من ضياع بعض البشر فى متاهات الفراغ فى كون ملىئ بالعبر ! ! ألوان تدلى بشهادتها على أن الله واحد أحد ، ليس كمثله شىء .

لم أكتب هذه الرسائل من إيمان كإيمان العجائز فحسب ،

ولم أكتبها من وادٍ ما ركبت جملاً خارج شعابه وفلواته فذلك اليوم البعيد فى حياتى نقلتنى منه إلى عالم البشر مطايا غير مطايانا ، مطايا لم ترقع أخفافها من تآكُلِها من حصباء الجبل والصحراء ... مطايا لم ترد مياه الغدير ، عزفتْ عنه لأنه من مياه السحب ، وهى فى وردها وفى ظمئها تجاوزت ظهر الأرض إلى باطنها . فأوردها العلم آباراً نفطية منه أربعت وعلا سنامها ونبت ريشها فقويت قوادم هذا الريش فصار جناحاً ماعرفت الإنسانية جناحاً أعتى منه وأكثر حوماناً فى الفضاء شهوراً وأياماً دون ملل أو خلل فى واحدة من قوادم الجناح ! !

هذا الواقع الذى أخرجنا من العزلة فى قلب الصحراء إلى عالم البشر أرانا كيف يفكر وكيف يعيش وكيف يتعامل مع هذا الكون ومع الإنسان . والإنسان أوشك أن يربكنا ويلفنا فى ضلالاته ، إلا أن قراءاتنا لما خطه العلم وما قاله عن هذا الكون وعن الإنسان ، أخرجنى من الارتباك وأعادنى إلى قراءة قرآننا العزيز فإذا العلم يدلى بشهادة تثبت عظمة الخالق ولا تنفيه ، ولأنى فى رسائلى هذه لا أتجسس ولا أتلصص وراء عورات الإنسان وهدمه لبنائه الذاتى وتحوله فى أكثريته إلى خراب وعدم ، أبقى مع رسائلى فى مسؤوليتى الخاصة وتجريح بدن الضلالات عندى بمثل هذه الكلمات البسيطة ، والجرح إن كان عميقاً أو سطحياً لا يعالجه ويبرئه من فسقه فى معركة الذات غير الوقوف دائماً على حافة

المدفن ، فالبعد عنه وعن استحضاره دائماً ينسى الإنسان نفسه وينسيه أيضا أنه يسير إليه رغمًا عن أنفه حاملته إليه شهواته ولذاته وتعفن خلقه بسرعة عاجلة مهما كان مكانه من زمانه فى ظنون آمنة ..

كَمْ مِنْ رقبةٍ مدت عنقها وتطاولت على رقاب الآخرين ، وتعالت كتعالى رقبة النعامة يوم تسير فى خيلاء وسط صحراء خالية من الصياد ، نعم كم رأيناها هكذا ورأينا سيف القدر يبترها من جذعها فتسقط الكبرياء على تراب الأرض لا على هداية من قال للخائف (هون عليك إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد) ! !

أَلى من ورد قافلتى الذاتية على هذه الرسائل أجر رعاة الإبل الذين يرتادون لها الفلوات ثم ينادونها إلى الورد على آبار المياه فيجذبون لها من أعماقها ، وعرقهم يتصبب من التعب ، أفضل الشراب ؟؟ كم من مرة وقفت أمام رعاة الإبل وهم يجذبون المياه الثقيلة فى الدلاء الضخمة على ظهورهم وأذرعهم القوية ، هم الآن معى فى الذكرى يوم كنا وكانوا فى قلب الصحراء عائلة واحدة قبل أن يفرقنا الزمن ، وتقصينا هذه الحضارة وتفرق شملنا ، وتبدد فى أكثريتنا عواطفنا الحارة ، هناك قُرانا فى الصحراء قابعة على ذكريات دفينة فيها لا أدرى : ألها من يبعثها فى يوم شاب لا شيخوخة فيه ولاهرم يملى على قلمه مثلما أملى الآن شيخوخة وهرماً وذكريات ناحلة على قلمى ؟ وما أنا فى هذه

الكلمات الذابلة إلا واحد من رعاة الإبل أجذب الكلمات من بئرى العميق ، ولكن ساعدى ضعيف لا يجذب غير من كانت فى خفة جناح الجرادة لا أقبل أن تكون لى عن الإنسان صورة مقفرة أرضها من الخصب ، ولكن ماكل راعى إبل بقادر أن يرتاد لها الخصب فإذا جاءت كلماتنا أو جاء تفكيرنا سقيماً ورديئاً فلأننا لا نحسن الارتياد ولا نحسن الاختيار ، ولا نرى الوجه الجميل فى غابة أحملها معى فى هذه الحياة إلى أن توصلنى هذه إلى المدفن فتتركنى لأجلى الذى ينتظرنى ، يوم أقيس أعماق وأنزل فيها دوياً ليل نهار كل عمرى الذى قدر لى ماذا أرى ... ؟ وماذا أمر به فى هذا النزول وفى هذه المنازل من خليط بين قبائل لا تعيش فى سلام ؟؟ إذا أخذتها إلى مصلاى فى مسجدى هنا على هذه الأرض أو هناك على أى كوكب من الكواكب حملتنى إليه تأملاتى اضطربتْ فى هيجان متوحش قبيلة وراء قبيلة فهدمتْ مصلاى وغيمت على تأملاتى ، وهكذا أعيش الصراع ولكنى فى أكثر الحالات أنيخ كل مطية مصابة بالجنون ، ثم أعقلها حتى لا تفسد علىّ سلامى داخل نفسى .. ! !

إذا حركت ريح الصبا سعف النخيل أو جدائل من ترعى قطيعها فى رأس الفلاة ونثرته شعرةً شعرةً على عاتقها وتبدى القمر فى كبد السماء ساءلتُ القمر أأنت الجميل ... ؟ أم وجه هذه الراعية التى ترتاد

لقطيعها رؤوس الشعاب المخصبة ! فحنى الجواب رقبة كل الكواكب وكل النجوم والأقمار والشموس وقال : ليس أجمل من هذه البدوية التي لها شرف النسب إلى أمها حواء ..

فلماذا نذهب بعيداً وراء التصورات والظنون ونرتاب فيما لم تقبض عليه يد الطين عندنا .. ؟ لماذا نركب ظهر العقل والفكر وندفع بهما جملين هائجين وراء كون واسع وجمال لا يحده وصف ؟ فإذا برك الجمل وعجز عن السير قلنا هذا هو كل شيء ! ! ولو أننا تواضعنا وقدرنا حجم جمالنا الفكرية والعقلية وجهدها وقدرتها على السير وأن لها أخفافاً لا قدرة لها على تجاوز أكثر من طاقتها ودورها مع الحياة والإنسان والكون ، لما أخطأنا الطريق ! !

لو أن مراكبهم رحلت على مطايا من الذوق ومن الوعى لتحوّلت كل الأقمار والنجوم والشموس إلى قافية من الشعر وعقد يجمل رقبة المرأة .. فلا جمال ولا ضوء ولا نور ولا معاشرة مؤنسة وطاردة للوحشة إلا فى قلب المرأة وعلى صدرها ...

ولمن تآكل قلبه وعلاه الصدأ ، ولمن أكل إحساسه وشعوره التسوّس وقال عني بدوى يهرف بما لا يعرف لا أتعالى عليه بتجربتى ونظرتى إلى المرأة ، فحواء متى هانت على الرجل وتذبذب فى قلق غيوم ما تتجمع لتكون غمامة واحدة إلا وتمزقها الرياح قطعة قطعة ثم تمحوها

من كبد السماء .. ألا نرثى لحالها وحالى فى شيخوختى .. ؟ فما أنا فيما أقوله هنا بصياد ينصب شباكه ، كل شىء انتهى وعاد كما بدأ طفولة تحن إلى صدر الأم ... !



أبنـــاء حـــاتم وعـــروة ...

أبـويّ :

بالأمس وقفت أمام كادح يحرث أرضه ويضع البذور فى فمها ثم يواريها فى جوفها دفينةً يتراءى للناظر إليها أنه ألقى بها فى قبر لا نشور بعده، وفى مكانى الذى أقف عليه قال لى رب المزرعة: ارفع قدمَيك فالحياة تحتهما تتوق إلى النشور ، سألته وهو فلاح بسيط لم يقرأ فلسفة هذا ولا ذاك ، هل تؤمن أن بعد الممات نشوراً ... ؟ ضحك ضحكة ساخرة وقال: أتسألنى سؤال منكر وجاحد، أم أنه سؤال عبر إليك فى هذه اللحظة ليأخذنى ضيفاً عليه ... ؟ أو آخذه ضيفاً علىّ .... ؟

البيت واحد والعائلة واحدة .... والسؤال والجواب عليه غداً أو بعد غد ، تعال إلى هنا لتسمع الجواب وَلِتَرَ أن المدافن والقبور كل من زارها كزيارة هذه البذور التى بالأمس تراءى لى ولك أنها ميتة ولا أمل من الحياة فيها كيف هى اليوم .. ؟ وكيف أعادت لها الحياة الرجعة من جديد إلى أن تكون سنابل رعتها الحياة إلى أن صارت هكذا ، ودورة الحياة والممات فى الإنسان ما أخلفت الميعاد فلنرفع

أقدامنا عن تراب المدفن الذى توارى فيه الإنسان ، لأن بعثه آت لا محالة ولا نكران ، وإن أجهدت فكرة العدم بفلسفتها فى قطع كل أمل لما بعد هذه الحياة .... واغتيال رقبته ... !

ما أسهل الطريق إلى الله اليوم ! وما أدنى الإيمان من قلب الإنسان ! لو أنه يوم ركب مركبة الفضاء وفتح باب الحياة المغلق على كل عائلة معزولة فى شبر من الأرض لا يرى هذا ذاكَ ولا يدرى ماذا يعمل وكيف يفكر ، نعم ، لا أقول هذا التصور من فراغ ولا أحمله على جناح من الخيال ولا أبنيه صرحا من الرمال ، ولكنى آخذه من عقيدتى ومن شهادة العلم اليوم واكتشافاته الكبرى لعظمة الخالق ، إذا لم نرد هذا كله إلى الله ، إذ لم نره فى علم الله الواسع بارقة صيف ومضت فى ذهن الإنسان وعقله فماذا نقول ؟ وكيف تكون تفسيراتنا لهذا كله ... ؟ أنقول فى هذا تجاوز الإنسان قدره وتعالى على ما لا حق له فيه .. ؟ أنقول أبدع وخلق .. ؟ أنقول ونقول .. ؟؟ فتأخذنا ضلالات العقل الذى لا تقوده عقيدة سماوية ولا يعقله الإيمان بالله فنضيع فى متاهات العدم ؟؟

فى الماضى البعيد كان واعظنا الشيخ الجليل ابن الجوزى أو الفُضَيل بن عياض أو سواهما من الأخيار ، يلقون مواعظهم من فوق منابرهم على مستمع ملتصق بالموعظة لم تتبدد مشاعره ، ولم تتوزع

أفكاره ولم تكن له راحلة من قرية إلى قرية غير الجمل والحصان .

ومقاييس الواعظ لهذا الكون وأبعاده مقاييس مجتهد نظيف السريرة ، ولكن الذراع الذى يقيس به سعة هذا الفضاء والكون ذراع غير ذراع هذا العصر الذى يجب أن يلحق به الإنسان المؤمن فيقبض عليه ويقول : لستَ ذراعاً طويل الباع أو قوى الزند ، هون عليك ! نحن فى رسالتنا الإنسانية نعرفك ونعرف قدْرك ، نُكبر الله وحده .. ! نسجد لله فى الأرض أو فى الفضاء ، مساوئك لك وعليك ، وعلمُك واكتشافاتك ، لنا ربيع وغدير نغتسل منه ثم نصلى لخالقِ الربيع ، خالقِ الجَمال ... !

تحار الآن فى عينى دمعة ساخنة يقبض عليها حيائى ، فسفح الدموع والبكاء أسقت به عيون الصالحين تراب هذه الأرض .

أما اليوم ، فكيف لنا أن نلحق بالقافلة ؟ وهناك نذرف دمعا سخيًّا على تراب القمر أو على تراب آخر منتظر أن يلحق به عطاء الله للإنسان ؟؟ ولكن الجامد فينا ظل فى عشه كسولاً مانوى الطيران ولا قرأ لنا الأسماء ! ! أهذا منى تلاعب بالألفاظ ؟ ونفاق فيه تُقبل الكلمات التائقة إلى التعبير جبينه ؟؟ لا أحد يستطيع أن يلحق بالسريرة فيزكيها أو يحكم عليها بسواد الوجه وإن كانت لها جبهة عابدة غير الله . ولا أحد أنوى مخاصمته أو مجادلته أو أن أعيبه بكلمة

واحدة ، فلدى كل إنسان مَنْ يحصى عليه أفعاله ويدقق فى حسابه ، وهو حساب لن يكون مغلوطاً أو قابلاً للخطأ والافتراء لأن الموظف لهذه المهمة فيما بين الإنسان وخالقه أمين كل الأمانة ، أما أنا وأمثالى فقد تكون أقلامنا خناجر ، طعناتها قاتلة لكبد الإنسان .... أعرف هذا جيدا وأحاول أن أنفيه عن نفسى ، وليت كل إنسان يقدر طوله وعرضه وعلاقته بأخيه الإنسان ....

هذه التصورات أو بالأصح هذه العبرات التى يكتبها إنسان من واديه الخاص ، قليلاً ما أظلته شجرة مورقة لأن الشجرة النفسية المورقة تبقى حطباً يابساً إذا لم يهبط عليها الغيث من داخل النفس ، وهذه هى مشكلتى مع أشجار الوادى الموحش عندى والمجدبة أشجاره .... !

عبراتٌ تعبر من بدوى منازل أهله وقومه فى قلب الجزيرة العربية هم اليوم أخذتهم الأحداث إلى عالم البشر ، أخرجتهم من عزلتهم وجذورهم البعيدة ضاربة فى تربة الأخلاق والمروءة والبذل والعطاء .. هم أبناء حاتم الطائى ، وعروة بن الورد ، وفارس بنى عبس ، وابن أبى سلمى ، هم أبناء تلك القبائل التى نادتها الهداية الإنسانية أن احملونى إلى كل البشر فاستجابوا للنداء العظيم فمشوا مشرقين ومغربين والتاريخ يمشى أمامهم ومن خلفهم يسجل

للبشرية نماذج من الأخلاق ، هى ما أرادت شعاب الجزيرة العربية وبطون أوديتها وقمم جبالها أن تحافظ عليه ، هى الآن تحاول أن تغلق أبوابها عن كل طارق ليل ترتاب فيه وفى حاشيته التى تصحبه ، وحتى لا نكون فى عزلة نفسية وفكرية عما يجرى فى هذا العالم الذى أصبحنا جزءًا منه ألحق فى ذيل هذه الرسالة حادثة مرت بى .

كنت فى حوار مع أحد رجالات الغرب أحاول أن أقص عليه من هم العرب ، ما هى رسالتهم الإنسانية ؟ ماذا قدموا للبشرية من علوم وفنون وسلوك حضارى ، فكان رده : كلنا مرت بنا أحلام جميلة جدا ، ولكن الحلم الجميل أيبقى الإنسان جميلاً وحضارياً وإنسانياً لأنه حلم حلماً صبوح الوجه فى زمن بعيد قد يكون أكثر من ألف عام بكثير؟؟ قلت له ماذا تعنى .. ؟ قال أعنى من أنتم فى هذا العصر.. ؟ من تكونون ؟ أأقول لك الحقيقة وإن كانت مُرّة ؟ عالما الغرب والشرق ينظران إليكم على أنكم لا تزالون رعاة إبل لا رعاة بشر! .. ينظران إليكم على أنكم آبار نفط وليس غير ، عملة إذا نفدت نفد منكم كل شىء ، خاض خوضاً كدر المياه وأغرقنى فى عذاب ما بعده عذاب .... ! !

ابـــن نـــؤوم الضـــحى ...!

أبـويّ :

قال أحد الشعراء فى الزمن البعيد :

وَقَدْ أَغتدى والطير فى وُكُناتِها

بمُنْجَرِدٍ قَيْدِ الأوابدِ هَيْكلِ

قالها بالأمس ، والقول كلما حاولت أن الحق به تعثرت خطاى ، لأنى ابن نؤوم الضحى ، وما بين ابن نؤوم الضحى وبين من يغدو والطير فى وكناتها مسافات بعيدة فى الوثبة ! ! ما أدمت قدمى أحجار الطريق وثلمت عقلى صخوره وجرحت كواسر الطير كبدى إلا لأنى ابن نؤوم الضحى ... !

أنصب فخاخى لطيور النفس ، ولكن ما وقع طير واحد فيها لأنى ابن نؤوم الضحى ، لأنى لم أنصبها « والطير فى وكناتها » .... !

والذين نصبوا فخاخهم والطيور فى وكناتها داخل عقولهم وجماجمهم ماذا عنهم ... ؟ أيحق لنا أن نسائلهم من مراقدنا ؟ وهل إذا سألناهم سؤالاً مخلوطاً بالنعاس أو بالأحلام نستطيع أن نسمع

الجواب ونعيه ..... ؟ وهل إذا سألناهم يلحق بهم السؤال .. ؟ وهم على صخور القمر يرصدون النجوم البعيدة ... ؟

لا أتصور أن لامرئ القيس فى غدوه ، والطيور نيام ، هدفاً حنى قوسه ليصطاد به نافرةً يقظةً وقعت فى الفخ وظلت باقية فيه حتى يأتى إليه ابن نؤوم الضحى يجرجر خموله العقلى والذهنى ... أبداً ... ولكن الرموز إن جاءت عفوية ألقتها الذات على ميعاد مع من سيلتقى بها فى زمنٍ وَقَّتَ له تطور الحياة بالإنسان وهو الذى يفرى كبدى الآن اللحاق به ، لو كنا نغدو والطيور فى وكناتها وعلى سابحات ركبها الكِنْدى فى العصور السحيقة أو ركبها رواد الفضاء فى القرن العشرين ، لما جاءت الرموز فينا وأذهلنا غدوّ الآخرين « والطير فى وكناتها » ... ! !

لا أدرى ، أنلوذ بكهوف الجبل أو كهوف النفس ونترك سوارحنا قوتاً للذئاب والطيور الكاسرة .. ؟ فقد هانت علينا الحياة وهانت علينا كبرياؤنا أمام عصر ، عَصر الجميل فينا فى قدح من البغضاء والكره ثم أراقه فى سمائنا ونادى علينا فى عالمه بوسائل جائرة وظالمة .. ؟

أأنا بهذا حائر ومتعصب .. ؟ أأنا به عازف عن كل مطايا غير عربية وغير إنسانية .. ؟ ما تظاهرت فى نفسى وفى سمائى غيوم

لا أستمطرها وأستغيث ماءها الطهور لأهلى العرب وليس غير ، غير أن دروب العصبية والعنصرية ودروب البغضاء والحقد على قومى وأهلى سارت وتسير عليها فى جنون ورعب سحب الآخرين التى لا تنزل غير الشقاء وغير تقطيع الأوصال ، وإفساد العقول والضمائر وتحريك الغرائز التى لا تشبع ولا ترتوى من فسق العبث بالقيم والأخلاق ! !

ولأنى أمشى على هذه الرسائل فى طريقى إلى المدفن أحاول ألا تصل معى هذه الأحاسيس وهذا الحب إليه ، أخطها من دمى أو عرقى أو من رماد حريق ظل يشتعل فى أشجار النفس حتى أكل الرطب واليابس ، وهى رسائل لا تحمل ما يروى ظمأ رضيع جاعت أمه حتى جف ضرعها فظل الطفل يصرخ وهى معه تذرف الدمع ولا حيلة لها غير البكاء والعويل ، فطفولتنا لم تكن تلك التى مهدتها الأم أبداً ، لا أزال طفلاً مررت بالحياة وهأنذا أمشى محدودب الظهر محدودب العقل محدودب التفكير... أسير على قدم الطفل وألوذ دائماً بصدر أمى حواء وما أكرم حواء فى حملها وفى رضاعها وفى حنانها على يوم كنت رضيعاً ويوم صرت شيخًا .

وهنا لا أدرى أسيكون لهذه الرسائل قارئ أو قارئة .. ؟ فأقبّل الورق وأملى على قلمى من دموعى معاذيرى وسرُاىَ فى هذه الرسائل على قدم حافية مشت داخل النفس على حصباء وأشواك وأضراس

حادة ، كلما خطوت خطوة واحدة وأضنانى السير مِلْتُ إلى السقوط وعدم الحركة لأن الطريق طويلة ، ولكن الصبر والاحتمال والرغبة فى الخروج من ظلمة النفس وعتمتها إلى ضوء القمر كثيراً ما أغرانى بمواصلة السير فى حذر ، فما كل من ستمر عليهم هذه الخطى أو ستنزل فى ضيافتهم بكرماء يكرمون ضيفهم وإن كان غريباً لا يعرفون نسبه ولا أهله ولا قبيلته ، فالكرماء فى هذه الأرض اليوم هم الغرباء فيها ، فمن اهتدى إلى بيت من بيوتهم فلينخ مطيته وليعف ظهرها ثم يقم ولا يرحل .. ! !

العلم اليوم واكتشافات العلماء ومراصدهم تقص علينا قصصاً لا تستطيع الكلمات ولا حتى المشاهدة أو الملامسة بأية وسيلة من الوسائل أن تعطى للقلم شراباً كونيا يسقى به الأوراق العطشى إلى مضاعفة الإيمان وملاحقة كل آية من آيات الله الكونية فى أبعادها ، هزيلة هى أقلامنا وهزيلة عقولنا وأفكارنا مهما أطعمناها وأسقيناها من هذا الكون الواسع ... ! !

فالذين فلسفوا لنا الحياة أو فكروا لنا أو قاسوا لنا آية من آيات الله نترحم عليهم ونحن نقرأ شدنا إلى الإيمان بالخالق فكيف بنا وبهم لو كانوا معنا اليوم من سكان النجوم بمراصدهم العلمية .... ؟

أأنا طفيلى حين أقول : [معنا] ، أأنا ممن يتابع الشعراء شعراء

النجوم ، أأنا غاو أتشمم موائد أغنياء المعرفة فى مثل هذه الرسائل التى لا أستطيع بها أن أرقى إلى أكثر من صخرة وادٍ جادت عليها السحب فأنزلت الحجر المتهاوى من تربة الجبل الذى لم يقبل به ملتصقا فيه لأنه من حجارة السفح .... ؟

ولا أدرى أللسفح فى نظام الحياة والكون مرتبة وللقمم مرتبة ؟ من يدرى ، أللسفح دموع وللقمم أنوف شامخة ؟ أهذا مما يوجد بينهما تناقضاً وحسداً ؟ تساؤلات ما جاءت إلىّ من الفراغ ، ولكننا مدعوون لذلك ، مدعوون إلى أن نتساءل وأن نتفكر لا لننتزع الإيمان وتجور عليه عقولنا وأفكارنا ، ولكن لكى لا تجوع وتصاب بالهزال مداركنا فتثوى فى مباركها كما تثوى مطايانا التى أمحلت سنتها ، فبركت جثة هامدة مهما حاولنا أن نثيرها ونحملها على الأكتاف تظل كما هى ... ! فهذه الحياة التى لا ندرى متى خطت أول خطوة على طريق الزمن ولانعرف متى تقف بها خطاها... تراءت لنا من عيون الذين رصدوها لنا فى التاريخ وقدروا لها حركة ذابت فى فم الزمن ذوبان عيون من رصدوها .... فعين هذه الحضارة أهى عين فتاة شابة كشباب زرقاء اليمامة ؟ أم أنها ستلحق بها الشيخوخة فتذوب عيناها ثم تجريان دموعاً تودع بها الحياة وداعاً لاكوداع الخنساء لأخيها صخر... ؟

فجناح الإنسان الذى سخر من جناح العقاب حكم عليه العربى بالسقوط يوم قال :

ما طارَ طَيْرٌ وارْتفَعْ إلاّ كما طَـــارَ وَقَـــعْ

والخريف الذى تتساقط أوراقه هنا فى هذه الرسائل لم يكن سقوط جنين حملت به أنثى شيخ هرم ، فهمست جاراتها بالسوء فيها ظلماً وبهتاناً ، وما أكثر من همس وقال قول السوء فى ربيع أو خريف .... ! !

وابن نؤوم الضحى متى يغدو والطير فى وكناتها لعله يلحق بالقافلة ؟؟



تساؤل يثيره عقل كسول !!

أبـويّ :

أأنا الإنسان الوحيد الذى يصاب بالأوجاع والآلام كلما طال به السفر على مطايا هزيلة ضنت عليها سحب الوعى أن تروى عطشها وعطش أرضها فتربع .. ؟ أأنا تائه فى أسفارى فأعود قعيداً لربة البيت ... ؟ إذا ضاقت حيلتى وضاقت يدى بما فى جيبى وقالت عنى : مفلس ، أأرابى بالغالى علىّ والعزيز حتى يمتلئ جيبى ويكون ثريًّا ... ؟

أتساءل تساؤل رجل لامته قعيدة بيته ولامته السنون الطويلة وعنفته تجربته ، والتساؤلات هى التى تأتى مسرعة وعلى عجل على خاطر الإنسان وذهنه لأن ما فى الحياة وما فى مشاهد هذا الكون ما يدعو للتساؤلات وراء التساؤلات . ولو لم تتعاظم هذه وتكبر فى عقل الإنسان وفكره لما تعاظمت الآمال ولما أخذتنا نزعة روحية إلى ما فوق الأتربة والمجرات والشموس والأقمار إلى كل ما هو بعيد وراء المحسوس .

فيوم أمشى فى خطى متأملة على الشارع العام أحمل معى مرآتى ماذا أرى .. ؟ أتهيب أن أضع المرآة لكما على جدار هذه الأوراق لتريا ضخانا مع يومنا الذى يطول علينا حضور شفقه فنسرع الخطى إليه ظنًّا منا أنه به تنستر عوراتنا ومن يدرى لعل ما نستقبله ليلاً ونودعه نهاراً لا يعنى شيئاً لما فى دخائل نفوسنا من حركة لا تنستر عنها عورة فى أفق لا تغيب عنه أفعالنا .... والفعل من الذى يجرحه أو يعدله .. ؟ من الذى يزنه بميزان لا خلل فيه . ؟ من هو الإنسان الذى إذا قال لى قف هنا أقف حيث أمر ؟ وإذا قال لى سر ... أسير حيث أراد ... دون تساؤل أو شك أو احتجاج أو تردد فى طاعة ... ؟ لا أحد غير نبى الهداية ، نبى الرحمة ، نبى الساعة ..... رسول البشرية !

وهنا يتراءى لى فم مريض قد يعترض ، أشم منه رائحة كريهة قد تكون رائحة غواية أو رائحة إلحاد أو رائحة تعفن .. ولكن ما كل ما فى هذه الحياة روائح شيح أو روائح خزامى داعبتها صَبا نجد فى روضة من رياض الصحراء أو تلعة من تلاعها .. أو حاجر تجافت عنه رعاة الغنم ورعاة الإبل ، فظل فى شبابه وربيعه يرسل لى روائحه مع الذكرى .. وأنا أخط هذه الرسالة .

ولكى لا أكون مسرفاً فى تشاؤمى أو فى جورى فى مثل هذه

الألفاظ العائمة على لوح من الخشب البالى تتراءى لى من علو الزمن إلى يومى هذا أو إلى غدى أن فى البشرية مَنْ روائحهم الجميلة تفوق كل رائحة على هذه الأرض ، فهم وحدهم الروائح التى لا تذبل ولا يأكلها الصيف ، بهم تعتز البشرية وتنال قدرها العظيم فى اليوم العظيم ، أتصور أنهم جمال الحياة ، وأنهم السارية الكريمة التى تسند عليها البشرية فى هذه الحياة وجودها واستمرارها . قد يكونون زواراً للقمر وللنجوم ولأبعاد هذا الكون قبل أن يزوره رواد الفضاء اليوم بآلاف السنين أو ملايينها ربما صلوا هناك بعقولهم وأرواحهم وتقاهم . وهم معنا على هذه الأرض !

والأرض وما عليها من إنسان أو حيوان أو نبات أهى عروس هذا الكون الجميلة ، وصائفها وحاشيتها حملن الشموع من حولها وإن كانت ضوء القمر أو ضوء النجوم أو الشموس .... ؟

تساؤل يثيره عقل كسول دعى إلى التساؤل فلم يستجب إلا بعد أن أناخ العِلْم ، وأناخت هذه الحضارة إبله ونحرتها ، وناقتى لا يظن قارئ لهذه الرسائل أنها هانت على خاطرى أو تحول عقلى من فوق ظهرها ذكريات بناها تاريخ الإنسان العربى عبر الأزمنة ، فهى فى رؤيتى لها حلم جميل ، ففى الوادى الذى أخط من منعطفاته هذه الرسالة يتردد صدى صوت الراعى فى سمعى ، ويتراءى لى عبث

الحاشى الصغير من حول أمه . والذكريات لا يقفر منها الوعى مثلما أقفر هذا الوادى اليوم من مضرب خيام القبيلة، وما اختيارى لهذا الوادى فى قلب الصحراء وأخذى مكانى فى ظل شجرة الدوح وحيداً إلا لأستعيد ذكرياتى مع هذا الوادى وأحاول أن أحلب ضرع الذكريات من قمة الجبل أو سفحه ، لأن القصر الذى بناه لى النفط لم يكن لى فيه ذكريات ، كل ما فيه غريب عنى ، والذكريات هل تكون محسوبة على التجربة ؟ وحركة الإحساس والشعور إذا لم تمش على قيعان الصحراء أو تصعد الجبل ، بل ظلت مقيمة فى صحراء النفس ، هل هى محسوبة على التجربة أيضاً إذا لم تمارس الفعل وضده ؟ هنا يتعثر القلم لتعثر الذهن ، فالفجوات واسعة لا تردمها كل أحلامنا ولا أوهامنا ولا حتى تجربتنا قصيرة الجناح .

والذين خطوا لنا تجربتهم وصوروا لنا الحياة والتعامل مع الإنسان بالصورة التى شكلتها التجربة عندهم ، لا أدرى هل يثق بها مثقف العصر الذى تقرأ له الحياة فى كل لحظة مفاجأة رهيبة علمية كانت أم سياسية أم اجتماعية ؟

ومراتع إبلنا يوم أقفرت هل أقفرت منها الذكريات وودعتها؟ لا. لا ذكريات لنا ولا تجربة ولا مناجاة لقمر السماء أو لشبيهته راعية الغنم إلا فى الصحراء . إذا حارت فى ذلك عقولنا وزهدنا فيها فقد

يتداعى بنياننا الذاتى ويتهدم ونظل نزلاء الخرائب ، وما أكثر ما قالت فلسفة العصر : علّق كل ماضيك على وتدك الذابل وتعال إلىَّ .. ! ! وهنا أبقى ملتصقاً بهذا التراب هاجراً سواه ، لو أخذتنى مركبة الفضاء إلى القمر وأجلستنى هناك وقالت اكتب رسائلك هنا فأنت أول رجل يخط رسائله من فوق قممه ، لا أقبل بالرحلة إلى مكانٍ لم تكن نزيلة فيه ليلى أو بثينة ولم تكن ريادته ورسالته من رسالة « اقرأ » . والتصورات وما نسميها ذكريات وما نلقيه حنيناً أو بكاء أو فرحاً ، وما نلتصق به مع كل هذا ونزكيه وعليه نبقى وننصرف عن سواه أتبقى تزكيتنا ، فى عالم أخلق الجديد وجدّد الخلق ، غير مجروحة ؟ .. قد يتراءى لى أن ماكتبته فى هذه الرسائل وبنيت عليه ألفاظاً من أطيان الذهن ، لا من أحجاره ، لم يكن سحابة صيف نفسية استدبرتها الرياح فمزقتها ، فإذا من يخيلها لظمئه قد ذهبت أدراج الرياح ، ولم تنزل قطرة واحدة ، وهكذا تسوقنا رياح النفس أو رياح الآخرين أو رياح الهوج الذاتى إلى مفازات لسنا من أدلائها ولا من روادها فنقع فى الفخ الذى نصبه الغرور ، ومن يتحسس طريقه وسط العتمة ألا يكون معذوراً إذا اختار أن يختفى منها ؟ فالذين تصوروا أنهم أوقدوا الشموع فى هذا العصر وحملوها على الطرقات ، ونادوا أن الضياء والنور معنا لم يتصوروا أيضاً أن من حام حولها

احترق عند أكثر حاملى الشموع .

أعود إلى الصحراء ، فلا سير لى على تراب غير ترابها ، ولا قدرة لى أن أخطو خطوة واحدة خارجها ، فالذين خرجوا خارج بيوتهم إلى بيوت الآخرين لم يجدوا غير العراء والازدراء فى عالم لا مكان فيه للغرباء ولا منازل لهم إلا خارج أبوابهم ولا غذاء لهم غير فضلات موائدهم الذهنية ،لا أجرح بذلك كبداً عطشى إلى المعرفة وساعية إليها على قمم الوعى وحاملة لقلم الحضارة العربية التى دفنتها فى أعماق التاريخ رمالُ الجهالة .

وعروبة لاتدين بالإسلام فى طهارته وقيمه ومثله العليا لن تسافر فى هذا العصر الذى يواصل السير فى الآفاق البعيدة سيبرك جملها فى أول الطريق ... ولماذا أنا مقيم إقامة هذا الحجر فى جناح الوادى ؟ لأنى لا أملك الجناح فقد أبقانى الزمن وظروف العيش والحياة فى عزلة لم أر الدنيا معها ولم أعرفها إلاّ بعد أن عرّفنى إليها النفط ومعى شيخوختى ... !

جدل بين حرائر وإماء..

أبـويّ :

أفى السرحان فى هذا الكون على جناح الخيال وما تلقيه الحياة على خاطر الإنسان ضياع فى متاهات النفس ؟ لا أدرى وهى تثير أثقل التساؤلات على تفكيرى وعقلى أأنا قادر أن أخلص من هذه المتاهات ؟؟ فخوفى شديد أن تذهب بى تساؤلاتى فى متاهات يقتلنى الظمأ والجوع فيها فأهلك .

والذين أوجعهم السؤال أو ربما أوجعهم الجواب عنه من البشر ، أرسلوا لنا تساؤلاتهم على مطايا مختلفة الألوان مختلفة الخطى أدخلها الزمن الطويل فى سباق واقفة على جنباته أجيال تضع الميسم أو لا تضعه على رقاب المطايا التى ألقحها السؤال فحملته جنيناً فى جوفها أو أخطأها الحمل لأن السؤال سفاح فاسد يرفضه رحم الحياة وتجهضه الحقيقة .

هذا التداعى الذى يهبط على خاطرى الآن فأسرع به إلى فم القلم قبل أن تضيع ملامحه ويختفى فى ضباب النفس هل يحتمله عقلى

وتفكيرى فأحمل عليه ما أتصور أنه أثقل من جبل رضوى أو من مجرة تسبح فى الفضاء يطاردها صياد هوايته ألا تخطئ رميته طريدته ، وإن كانت سباحة فى الفضاء ..؟ والقلق يحمل بندقيته داخل النفس ليغتال حريتى .. لأبقى كسير الجناح ، كسير عظم القدم ، راقداً على فراش لا ضجيعة لى فيه غير جارية دميمة من بنات فكرى فقدت حريتها فى كون واسع كل ما فيه ينادى بالحرية ورفع العبودية عن الإنسان إلا للواحد الأحد . !

أأسير فى هذا الاتجاه والسير مضنٍ قد تعترضه الذئاب والطيور الكاسرة فتفترسه ؟ وفى هذه الحالة أأكون محسوباً على يائس ظللته سحابة داكنة من الكآبة فانتحر ؟ لأن الذئب إن كان فى الجبل وبين الصخور أو كان فى كهوف النفس يبقى ذئباً لا أمان له لأنه يمارس طبعه ولا أشد على الإنسان من ذئاب النفس التى تثير سحباً من القلق والألم والأسى ثم تفترس الحياة الجميلة فى الإنسان الجميل !

والإنسان الذى أكرمه الله وجعله فى أحسن تقويم هو الذى يثير أعاصير شديدة من التساؤلات داخل نفسى وتجعلنى أحاول بكل خفقة من خفقات النفس أن أرصد الحركة عندى لعلى أعثر على ضالة الإبل التائهة عن عقلى فمفهوم الكرامة ومفهوم الحسن ومفهوم التقويم هل اختلفت عليه البشرية .. ؟ هل أضاعته الأكثرية ... ؟

ما سجلته وتسجله عندى أجهزة الرصد الذاتية يلقى على عقلى ومداركى ملامات رهيبة تنيخ مطاياها عند بيتى وتقول لى أدلج ليلك ونهارك وراء المفهوم الحقيقى ، لا تتصور أن السفر مريح وأن قطع المسافات البعيدة لما يعنيه هذا العطاء العظيم للإنسان فى حركتك اليومية هو كل شىء ... !

أأرثى لحال الإنسان وأنوح عليه فهو فى حركته مرتعش خائف وإن كان جنيناً فى بطن أمه ، والذى يبدد الخوف ويكسر جناحه هو الإيمان هو الأمل ، فمخلب الطير الجارح أو ناب الذئب المفترس ما أخافا سكينته يوم كانوا نزلاء فى الطبيعة فى تجاور أبقى لكلٍّ فطرته وطبيعته !

وهذه الجميلة التى تقف أمامى الآن لو حملت لها كل جميل فى هذا الكون لانحنى يلثم قدميها ويسبح لخالق الجمال ومكرم الإنسان به ، ماذا عنها .. ؟ وقاتلها غداً أو بعد غد أخوها بمسدسه أو بقذيفته من الفضاء أو من مياه البحار ألا نأخذ هذه رمزاً جميلاً نهتف له بالحياة ونأخذ أخاها الذئب رمزاً للوحشية وللفناء ونصيح بأعلى الصوت ضع بندقيتّك عن عاتقك أيها الإنسان الجائر الظالم ! ! دع لكل أم طفلَها ولكل أب مزرعَته ولعقلٍ أن يفكر ولحر أن يعبِّر ولأجل يومه .... ! !

تجادلنى الآن داخل نفسى حرائر وإماء من الألفاظ ومن الصور التى تختلف على الحجاب ، هذه مؤمنة به كل الإيمان ، وتلك تقول لها أنا فى القرن العشرين قرن أباح لى السفور ، ولكنه لم يبح لى العهر... وجدل كهذا بين حرائر وإماء وصور تختلف فى تفكيرها ونزعتها باختلاف الأمهات وربات البيوت ، كيف لى أن أحكم بينها فقد تجاوزت بى السنون القدرة على حمل العصا أو حمل تفكير يستطيع أن يعتق الإماء فيكنّ حرائر.. !

فاليد المفلسة قليل من يأسى لها ويصافحها ، ويد تفكيرى ما حملت المحراث لحرث أرضى ، ولا مدتها لثرىّ حرث أرضه حرثاً شاقاً وحط بذوره وظل يسقى البذور ويرقب الطير عنها حتى صارت سنابل قمح فى جمجمته ، ينثرها هنا وهناك ، ولكنْ قليل منا نحن البشر من يلتقط الحب قوتاً لعقله وذهنه ، وهذه واحدة من مشاكلى التى لم أتنبه لها إلا بعد فوات الأوان وبعد أن ضجر الزمن فى صباحه من مساء يومه . ومثل هذا الذى أحطه هنا وديعة من ودائع النفس بيد الزمن أله معنى يحمل إليه شكايتى ؟ وذوبان الجليد عندى فى فم لا هو فم الوادى ولا هو فم القلم ولا هو فم مطربة الحى ولا هو فم وشائج القربى يستمع للنداء ؟ فجدتنا زرقاء اليمامة ماذا عنها يوم نادت قومها العرب الحذر ! الحذر ! ماذا قالوا لها غير خرفت ! فإذا

الخطر يرد عليهم قائلاً لا لم نخرف ! ! ولكنكم تسملون العين المبصرة . ! قصتها طويلة مع التاريخ مكتوبة هناك على صخور جبل اليمامة ، كم من مرة مررت بها فأقرأتنى العبر !

وكل جليد تذيبه الأحداث لا فم له غير فم الزمن ، فهو الذى حوى فى ثنايا جيبه وفى منعطفات دروبه المتشعبة أحداثاً جساماً وعبراً قامت عامرة ثم سقطت مهشمة البدن ممزقته ، والزمن الذى يعرض لكل جيل من الأجيال ما لديه عن كل من مضى ، وصل به العرض إلى حمل أخبارنا وسرائرنا وربما عوراتنا من بيتنا الخاص الذى أريد لنا أن نستتر فيه أحياء أو أمواتاً ، إلى الفضاء ، ولكن رحلات الإنسان على كف الزمن إلى الفضاء اليوم ، لا أدرى أهى قلقه وملله منا ـ نحن البشر ـ ؟ فراح إلى هناك بالإنسان ليفتح له ثغرة بكراً لعل مواليدها ينادون ذئاب البشر أن الحذر الحذر ! ، تصور لا أم له عندى ولا أب ، ولكنه يأخذنى إليه نسب بعيد فى أعماق الدروب الوعرة التى لم يستطع إنسان أن يتجاوزها ليرى خطى من يثير نسبنا إليه ـ نحن البشر ـ صوراً قد تكون عمياء تتحسس بيديها طريقها مع القلم أو مع جناح الخيال الذى يحملها ، وما أكثر الرماة الذين هاضوا كل جناح إن جاء من الخيال أو أتى من الفكر ! وتصويب البندقية على جناح العقل صار اليوم أسهل على الإنسان من تصويبه على

جناح القطا . ولقارئ يقرأ لى هذه التصورات يعرفنى أو لا يعرفنى أن يتساءل عن بندقيتى أين هى الآن .. ؟ هل هى على عاتقى أم معلقة على وتد النوايا عندى ؟ له الحق أن يسأل أأنا أزوّر بهذا نفسى وسلوكى من يوم كنت صبيًّا إلى أن صرت شيخاً ؟ ولا أعظم بشاعة من تزوير الإنسان لنفسه !.!

والقضاء الذى يصوغه الإنسان ضد أخيه الإنسان من أهوائه ومن فهمه وتربيته وتصفيقه لنفسه إعجاباً بها أهو قضاء عادل ؟ من نسأل .. ؟ أسأل الذين لا يملكون الجواب . لأن قانوناً أسكتهم وسنته بشاعة عقل مضطرب ما عرف السكينة ولا عرف أن القضاء العادل فى قلب الرسالة الإنسانية الرحيمة بالإنسان ، والتى أكثر البشرية اليوم فى غياب عنها وفى أسفار بعيدة . أمنيتى أن يعودوا إليها بعد غياب طويل وسفر لم يسفر لهم عن صباح ولم يسقهم غير دم قان . والعودة إليها على أى طريق ستكون فى عالم فرقته السبل ؟ مسكين هو الرجل العادى الذى لا يستطيع أن يقوم برحلة شاقة وواعية لما تعنيه الرحلة إلى الله . مسكين هو إذا تحول إلى إمّعة ! !

أبـوىّ :

يوم فكرت أن البرَّ بكما فى عصر المادة وعصر غزو الفضاء هو أن أرحل إليكما فى مثل هذه الرسائل معتزا ومفتخراً بك أباً وبها أُما ،

ما جاء فى حسابى أن أكون واعظاً ولا معترضاً على أحد ولا منبهًا بيتًا أهله نيام أن البيت فى خطر بل أردتها رسائل يخطها الخيال والتصور ويحملها إليكما إحساس وشعور عامران بالحب ! ! .



شجرة الخزامى وشجرة الرمث

أبـويّ :

إذا أثقلت الأطيان عاتق وعجزت أن أحملها ، حاولت جاهداً أن أصعد مئذنة الذات عندى وأنادى على طائر جميل لا يهوى غير أن يسبح بجناحيه فى فضاء لا جدر عليه ولا أطيان .. طائر يهوى أن يحط أعشاشه وفراخه فوق الأشجار السامقة ، ولكن نداء خارجاً من فم ترابى لا يستجيب له طائر ما خفضت جناحه معصية .

والمعصية هى الآن فى الصورة تدلس على القلم وتحاول أن تدنس طهارته أو تأخذه خادماً مطيعاً لها يزكيها أينما ذهبت به معها ، وهنا يوم مددت يدى إلى جيبى لأمشى متكئاً على قلمى مع هذه الرسالة التى تسير فى شعاب النفس وأوديتها ، أخذنى صراع ما بين الطين وما بين الأشجار ، هو ينادى كل طائر بنى عشه فى قمة الشجرة السامقة أن تعال إلىّ وابن عشك لفراخك فى حيطان الطين .

وتعطير هذه الرسالة أو أخواتها بروائح الخزامى أو محاولة تنظيف وجه كل رسالة بماء الغدير هل يزكى كل هذا كاتبها وممليها على

قلمه .. ؟ لا . أتصور أن فى ذات الإنسان ثعالب تراوغ وتنافق وتتظاهر تظاهر الغيوم التى تحمل المياه الطاهرة ، ولكنها تظل فى سريرتها مقروءة قراءة فصحى فى يوم لا جحور فيه لثعالب ولا لحيّات أو عقارب ، يوم يتعالى فيه كل طائر لم يثقل جناحه الطين ولم يلوثه ، يوم لا مدفن فيه يستر العورة ، وهذا اليوم الآتى لا محالة لا نسألكم أيها الآباء عنه ولا نلح فى السؤال ، فدوركم هو الدور الذى لا جواب عنه إلا حين نلتقى يوم النشور ! !

فى نيتى بعد أن أُفرغ من نفسى هذه الشحنات وهذا التداعى الرهيب من أتربة الذات أن أحرقها ، وليت نيرون لم يحرق روما ، ليته يوم تداعت عليه الأتربة والوحوش الكاسرة والذئاب المفترسة ، داخل نفسه خطها فى رسالة أو رسائل ثم أحرقها ، ونيرون روما مامات مذهبه بل موجود فى أكثرية البشر ، أتحاشى تسمية نيرون العصر ، ولكن إشعال الحريق بين رجل ورجل ونيرون ونيرون بين مدينة ومدينة ، بين جيل وجيل يختلف كل الاختلاف ! !

فإذا سجل التاريخ على نيرون وأمثاله تلك الوحشية وتلك الضراوة فكيف لإنسان خيّر أن يقبل به شريكاً فى نسبه مع الأب الأول والأم الأولى .. ؟ فى هذه الحالة الرهيبة ألا يفر منه الرجل المؤمن النظيف فراره من الوباء ؟ ألا يرفضه النسب إلى الأب الأول

والأم الأولى ؟؟ هذا التوحش وهذا الجنون الذى لو لم تمارسه فى عصر غزو الفضاء وحشية أعظم من وحشيته لما قبلنا بما قاله عنه التاريخ !

ما فائدة ألفاظ تائهة فى عالم يتراءى أن كل شىء فيه تائه وعاض على سبابته من شدة الألم والحسرات .. ؟ أأجدُ عذراً إذا أفرغت ما امتلأ به القلم من أحاسيس النفس فوق الأوراق ثم أحرقتها ؟ فما أكثر ما خطه الإنسان عن الأب الأول والأم الأولى .

جراح فوق جراح ونزيف فوق نزيف ، بحار من الدماء ومن الدموع ومن الجور بالكلمة وبالفعل ، اغتال الإنسان الأنبياء وأنكر فى أكثريته الرسالات ، لم يكن عفاً ولا نظيف الثياب والجسد . قذف المحصنات وآلم بطعناته سكينته وأمنه واستقراره .

أأنا بهذا الذى أتظاهر به قد قلته بعد أن نظفت ثيابى وصار كل شىء عندى طاهراً ما انتقض وضوؤه ... ؟ أبداً ، ما أكثر ما عندى من ضغوط وحمم توشك أن تفجر بركاناً ، رائحته مؤذية ومؤلمة ! ! فلست فى أعماق إلا إنساناً لا يستطيع أن يعلو بنفسه عن مرتبة الإنسان وبشريته . ولكن إذا ركدت المياه ولم تحركها الرياح والأعاصير جاءت الألفاظ فى هدوء عند غياب العاصفة ... !

والعاصفة إن جاءت من أفق الكون أو من أفق النفس ماذا نقول عنها ... ؟ وبماذا نتقيها .. ؟ أنبنى الجدر لنلوذ بها .. ؟ وأى جدر

هذه ؟ وأى عاصفة نخشى .. ؟ أتساءل لا لأنى تائه عن الجواب
ولكن لأحمل الجواب وآخذه من أفق الذات لا أفق الكون ،
فأعاصير النفس وهيجانها هى التى خفت على كفها وتداعت كل
الجد ر التى ظن الإنسان فى نيرون أو فى هولاكو أو جنكيزخان أنها
ممتنعة عن التهدم والبلى ، فرحلات الزمن إلينا فوق ظهور السنين
الطويلة أفينا نحن البشر من استضافها فى بيته وسامرها ؟ وقال لها
حدثينى وقصى على قصص الغابرين لعلى لا أقع فى الفخ الذى وقعوا
فيه ؟ لا أتصور ذلك ولا أنفيه ولكنى يوم أزور خرائب بيت كسرى
أو بيت قيصر وهما رمز لكل رب قصر أخذه أجله وترك كل شىء
خرائب وراءه . أتساءل لماذا لم يصمد بنيان حضارى واحد ويظل
ممتنعاً على جرذان سد مأرب .. ؟ لا أدرى ، ولكنى لا ألوم أى
حضارة تهدمت ولا أنوح عليها وأبكى لأن مهندس هذه الحضارة
ومصمم جسدها لم يُدخل فيها عنصر الروح والخُلُق الجميل !

وفى هذه الحالة يتراخى فى ذهنى الرشاء الذى أدلى به فى أعماق
نفسى ويتذبذب تذبذب تفكيرنا فيما بين صبانا وشيخوختنا ، فكيف
لى أن أقيس زمناً طويلاً وعالماً بشرياً أسلمه أبواه إلى قدره ؟ أسلماه
للحياة وللممات ثم عادا من حيث أتيا بعد أن لحقتهما الرحمة .. ؟
وهذا الذى فينا يتوق إلى الصراخ إذا لم يكن له سبيل إلى التعبير فى

فضاء واسع لا جدر عليه ولا أبواب ولا نزلاء يعكرون صفوه أنتجاهله ونظل مع ربة البيت وأطفالها تملأ البيت بلعب الأطفال ونعيش هذه الحياة على هذه الشاكلة ؟ يوم يأتى ويذهب وآخر يلحق به فيطرده وهكذا نحن فيما بين صبانا وشيخوختنا لا نسأل ولا نتساءل من نحن ؟ من الجار .. ؟ من الآتية من أفقها صباحاً ؟ . وعائدة إليه مساءً ما القيمة .. ؟ ما الرذيلة ؟ ما العملة السليمة ؟ وما العملة الزائفة .. ؟ أهناك قيمة ثابتة لا خلاف عليها ؟ وهل الذين اختلفوا خلدوا .. ؟ هل ما تبنيه يدى ويهندسه ذهنى ويتعصب له عقلى لى الحق أن أقاتل الناس عليه وألزمهم به .. ؟

يوم ألتقى بأولادى فى بيتى أو فى الشارع العام وأرى الشباب والشابات يضايقون بعفويتهم وفطرتهم وطبيعتهم شيخوختى ويعكرون صفو هذه الشيخوخة ، سرعان ما تلحق بى ذكريات الصبا والشباب فتأخذ فى عتابى ، وهنا ينكسر جناحى يوم أقرأ كتابى الذى سجلته الذاكرة على يوم كنت شاباً يحمل ولى أمرى عصاه صباح مساء ليجلد ظهرى لأن شيخوخته أملت عليه ذلك ولأن شبابى وشباب أقرانى يضايقه ! ولأن بعض الشيوخ يفقدون الذاكرة وبفقدانها تتمزق وتتبدد المشاعر والأحاسيس عندهم ويتحول الإنسان إلى سارق ولص أمام شيخوخة يبست وجفت ولم يبق فى ريقها أو فى فمها

قبلة حانية ومتسامحة من ابن السبعين أو الستين على ابن العشرين أو الثلاثين ولا يعنى هذا أنى أفتح الباب على مصراعيه . والاعتدال هو المخرج من أزمة العصر ومن سلبياته وقلقه وعذابه إن كان فى قلب الشيخ المسن أو فى قلب الشاب الماشى فى طريقه إلى الشيخوخة .
أبـوىّ :

غداً أو بعد غد أقضى إجازتى فى مرابع صباى فيما بين سفح جبال اليمامة وكثبان رمال الدهناء ، وهناك أتساءل أهذه المنازل هى منازلنا الأولى التى أنزلتمانا فيها فبقينا محافظين على العهد وعلى الولاء لتراب اخترتماه لنا ؟ وقد يلحق بالسؤال سؤال آخر قد لا يصل الجواب إليه فى عصر جار فيه إنسان على إنسان ، هل أستطيع أن أعود إلى أيامى الأولى فى عفويتها وفطرتها وعيشها ؟ ليت الجمل راحلتى ! وليت البدوية شريكة حياتى فى بيت الشعر ! ! ليت الكلب الأليف يرافق راعية الغنم يحمى قطيعها ! ليت هذه المدنية وهذه الحضارة تغيب شمسها عن ذهنى فأبقى فى ظلال الفطرة التى ما أحرقت فؤادى ولا غرست فى تربتى غير شجرة الخزامى وشجرة لرمث ! فهما من أجمل أشجار الصحراء التى كل جميل فى ذكرياتنا دفين فيها ..

الجنـــون فنـــون ...[1]

أبـويّ :

إن للحياة وللممات ولما بعد ذلك كله سفراً بالإنسان حار فيه عقله ، وربما خارت فيه عزيمته وقليل من تجاوز هذه الحيرة وتخطت به إرادته وعزيمته صخرة الطريق ... لا أعترض اعتراض الجثة الميتة فى طريق كل من مر عليها أدلى بشهادته أن الصرع ألقاها هنا قتيلة لا أحد قتلها .....

فمتى غاب العقل حل محله الجنون ،تقابل قبل عشرات السنين فى قريتين من قرانا اثنان من المجانين ، والجنون فنون ، كما قال المثل العامى ، واتفقا فيما بينهما أن يقوما بعمل مشترك ضد أهل قرية وأختها . قال المجنون للآخر : بالأمس ضربونى وقيدونى ثم أطلقوا قيدى ولابد من الانتقام ! قال الآخر : وأنا أهل قريتى كثيرا ماضربنى أطفالها وصغارها بالأحجار وآذونى فماذا تريد أن نفعل ..؟ أقترح عليك أن نشترى سما ونضعه فى أدوات غلى القهوة ، وفى

(١) هذه الحادثة وقعت فى قريتين من قرى سدير.

القرية لايوجد إلا مقهى واحد يجتمعون فيه بعد كل صلاة جمعة فى بساطة القرية وطهارة سريرتها ، وفعلاً نفَّذا هذا الاقتراح ووضعا السم فى الأوانى ثم راحا يقهقهان ويضحكان كلما مرا على نعش ضرباه بأيديهما وقالا له: «تحمل فكل الجماعة سيأتون إليك غداً ويركبون ظهرك إلى المقبرة»!! سمع ماقالاه واحد من أبناء القرية فارتاب فيهما ، فأخذوهما وحققوا معهما فإذا هما قد وضعا من السم مايقتل كل رجال القرية فى أوانى القهوة فقيد أهل القرية مجنونهم بقيد لافكاك منه،لكى لاتموت الحياة فى قريتهم على يد مجنون...!

أما الثانى فقد هرب إلى قريته بفكرة شريرة لكنها ليست كفكرة صاحبه الذى اعتُقل ، كانت قريته تعيش على الفلاحة معزولة فى قلب الصحراء لا لقمة عيش تأتيها من الخارج،وعرق الفلاح وجهده ليل نهار فى سبيل رزقه ورزق أولاده وقريته قائم على مفهوم عام وشامل لأهل القرية أن حياتهم وحياة أطفالهم وأمنهم فى عيشهم لايمكن إلا أن يكون من سهر الليل وتعب النهار ، وكان نضوج الثمرة وحصادها فى آخر أيامها كلٌّ فَرح مبتهج بنتيجة جهده امرأة أو رجلاً أو صبياً لأن القرية آنذاك تساهم فى سبيل طلب الرزق كل بجهده وكل بدوره ، فلا خامل ولا راقد ولا كسول ولاترف ولا عالم غير عالم القرية ، ولامصلى غير مصلاها مفاهيم بسيطة أراد لها المجنون

الذى تركت له حرية مطلقة من القيد أن تضطرب حياتها ويضيع جهدها وتصاب بيوم من الجوع والسغب كأحد أيام عام الرمادة الذى حل بقرى نجد ....

أما ماذا فعل المجنون الذى فقد عقله وفقد من يضع القيد بيده ، فقد مشى على كل آبار القرية ومزارعها وأطلق عقال كل بعير وكل ناقة عقلها صاحبها بجانب البئر لتستريح ساعة أو ساعتين ثم تواصل دورها فى جذب المياه من أعماق البئر إلى الساقية ، نعم أطلقها وساقها إلى قلب الصحراء كل ناقة أخذت حريتها فى الصحراء وراحت هذه الجمال وهذه النوق بدداً وأضاف على ذلك كله أن هدم كل أدوات الرى وألقاها فى البئر. فلما جاء فلاحو القرية .. إذا كل شىء خراب وضياع، خطر مابعده خطر على لقمة عيش ماكانت تصل إلى أفواه أربابها إلا بالعرق الشاق..اضطربت القرية وصار أهلها يحاولون بكل وسيلة أن يحلوا مشكلتهم ولوحلوا محل الدواب إلى أن ينظموا حياتهم ، وبعد فترة زمنية استطاعوا أن يجمعوا ماتبدد فى الصحراء وتوزع من إبل وأن يعيدوا لكل بئر ماتهدم ولكن المجنون أين هو..؟ ذهب مستجيراً بقرية أخرى وبأهلها فأجاروه فسبب ذلك قطيعة بين قريتين متجاورتين متآخيتين، إلى هذا الحد أقف عند هذه القصة التى لم تكن خيالاً ولااختراعاً ، ولكن ربما أن من الأحياء الآن من عايشها وعرفها.

أهذا الخبر البسيط الذى أنقله بأمانة عن مجنونين وعن قريتين من قرى الصحراء غريب فى كون عامر بالحركة قد لا يكون فيه مجانين ولا رعاة إبل ولا فلاح قرية ،كون إذا رفع الفلاح البسيط رأسه إليه ورأى القمر هلالاً صام شهره فرحاً به فرح أم بوحيدها الذى غاب عنها ، ثم عاد إليها هالاً فى قلبها كهلال شهر الصوم ... هذا الفلاح البسيط رب هذه القرية لم أنقل أخباره كما قلت من الخيال ، ولا من الحكايات ، ولكنى ممن أضافتهم القرية ومشى فى سككها الضيقة إلى كل بيت ما أغلقه صاحبه لأنه بيت مضياف ....

ونقل الأخبار من ابن لأبيه أو أمه أفيه تجاوز على اعتبارات تضيق بها الصدور ، فتحرق كل مابين أيدينا من أخبار جاءت إلينا عن الغابرين ..؟ تساؤل جفف فم القلم فلم يبق فيه غير هذا النوع من التساؤل فسجله لأنه لم يتمكن من ابتلاعه لأن سؤالا وراء سؤال تحقن به الأحداث وتمليه عليه إملاءً جبريا لاخيار له فيه ولا إرادة لأن مجانين القرية أثاروا تساؤلات رهيبة عن مجانين عصر غزو الفضاء ، عصر القنبلة الذرية ، أهل القرية رحموا مجنونهم وأشفقوا عليه وأعطوه حريته ليعايشهم ويشاركهم .. فى حاجاته الجسدية ، أما عقله الذى غاب عنه وفقده فلا أحد يستطيع أن يرده إليه غير واهبه .. !

ولكن أنقول ماقام به أهل القرية عمل معقول ..؟؟ أبداً ،
الوقاية خير من العلاج لو أنهم اعتقلوا المجنون وأحسنوا معاملته فى
معتقله لما أوشكت أن تحل بهم الكارثة ، ولما أوجدت القطيعة بين
قرية وقرية وسواء فى هذه الحالة والواقعة التى ذكراها فى ذهنى الآن
عن مجانين القرية أخذناها رمزاً جاءت به الأحداث الجسام متسائلة
أفى هذا العالم اليوم مجانين خطرون على الحياة ..؟ يمارسون حريتهم
الجنونية دون أن يجدوا من يضع فى أيديهم القيد؟ تساؤل تلقيه
الأحداث والظروف والدماء التى تجرى أنهرا فى كل مكان ومنتظر أن
تكون بحوراً غداً أو بعد غد !

ليتنا نعيش مع مجانين القرية وحياة القرية ولانكدر صفو أحد
بهذا النوع من الأخبار ! !

ما أخف دم مجانين القرية وما أجمل جنونهم وما أقل خطره على
أهله ! ! ما أجمل صورتهم وإن ضربوا النعش وقدموا له البشرى
بالجنائز لبيس لهم سرية حاقدة ومظلمة تحول الأحياء إلى جنائز ،
ولكنهم هم المجانين وهم المخبرون عن جنونهم وعن نواياهم ، ولكن
الخطر كل الخطر من مجانين العصر الذين ركّبوا الحياة تركيبًا معقلاً
وأرهبوا السلام فيها وأرهبوا العقل والفكر وصار كل شىء يرتعش فى
هذه الأرض من الخوف لايعرف متى يطلق مجنون قهقهته على فناء

العالم .. من رأى تسيب الأخلاق والضمير وكيف يُدرَّس الإجرام والجريمة ، أليس من حقه أن يرسل دموعه وبكاءه وحسراته ...؟



لافرار من الإناخة...

أبويّ :

فى أحضان التساؤلات هجع الرضيع وطال نومه فلما استيقظ من رقاده إذا هو جائع وظمآن إلى من يرضعه من ثدى الحياة ، والرضاعة أو الفطام هى مشكلة الرضيع الذى لايرتوى ولايكبر إلا حين تكبر معارفه وتساؤلاته ويعى دوره الذى جاء من أجله نزيلاً على هذه الحياة.والذين كبروا وتجاوزوا سن الرضاعة من ثدى الحياة وأحضان التساؤلات أين منازلهم فنرحل إليهم فوق مطايا لانضع فى عذارها خطاماً يعوقها عن السير ، بل نترك لها حريتها لعلها توصلنا إلى قوم نسائلهم فيعطون الجواب عن كل سؤال شاخ أو ربما هرم وهو يسير وراءه ، فالسنون التى خلفتها ورائى والقوم الذين عاشرتهم وتعاملت معهم وتعاملوا معى فى حدود ضيقة قد لاتأخذ فى مسارها سير طفل من بيت أمه إلى بيت جارتها ، لايمكن لى أن أقول إنها تجربة ناضجة فى عوالم أربكت كثيراً من العقول وسخرت كثيراً من تجربة هذا وذاك ، وعللت الإنسان فى سمر من الليل الطويل على قصص دروبها وعرة ، ما كل عقل بقابل لها ولا كل فكر يأخذها إلى

تجربته تتهادى إلى ذهنى الآن أيامى منذ كنت صبيًّا إلى أن صرت شيخاً وعلى باب بيتى الذاتى استقبلتها واحدة واحدة فماذا رأيت وماذا حملت إلىّ غير خجلى وحيائى من أكثر مافيها ، فإذا لمت يوما أو أياماً أو سنة أو سنوات منها لوماً معنفاً أأكون بذلك قد أجهضت الجنين الفاسد من بطن السنين ..؟ والتعبير هنا بمثل هذه الحرقة لايعنى أكثر من ندم فات يومه وفات زمنه ، والذى يحاكم يومه الماضى ويظهر الندم عليه من هو..؟ لا أتصور أنه الهرم أو الشيخوخة ، أبداً ، فهذان ربما أسكرهما الشباب فلما فرغت حانة الساقى وتقيأ عربدة الشباب وسكره حزم أمتعته وأثاث بيته وأعد للرحلة التى ما استطاع إنسان أن يتحول عنها أو يفر هارباً منها إلى بروجٍ مشيدة ..!!

والبروج كيف نفهمها ..؟ أهى من تراب هذا الكوكب وأحجاره ، أم هى مجاز أعلى ورمز لايلحق به خيال ، والذين هربوا إلى النجوم أو يحاولون أن يهربوا ستبرك بهم رواحلهم فى هزال ، مهما رعت الربيع سيلحق بها من ينيخها راضية أو مكرهة ، لافرار من الإناخة ....!

كلما أنزلت ثقلى داخل نفسى ورحت بعيداً وراء الأعماق أبحث عن سر أو أسرار كانت دفينة فى أرضى الذاتية تعثر السير وزاد البعد حتى لاقرار. والذين سبروا باطن الأرض وأنزلوا ثقلهم عليها ثم لحقوا

بالدفين فى سريرتها أتراهم قاموا برحلات أشق وأكثر جهداً داخل نفوسهم .

لا أدرى يوم تأخذنى مركبة الفضاء إلى عالمهم الواسع ويوم تهمس فى سمعى ابنتى الصغيرة من أقصى الأرض إلى أقصاها ... ويوم ويوم ... أصاب بالرعب والتمزق والتساؤل لماذا هذا كله ..؟ لماذا هذا العقد الثمين علقته الحياة فى رقبة هذه الحضارة ، وظلت رقابنا عاطلة لاتحمل غير عقد من الجهل ....؟

أنحسدهم ...؟ أنلعنهم ...؟ أنفاخر بآبائنا الذين مضوا إلى ربهم فى علو الزمن ، أنقول نحن ونحن وكنى ..؟ ما أكثر الآتيات من القريب والبعيد إلىّ الآن حاملة معها قائمة من علماء العرب والمسلمين الذين سبقوا القوم بالمحاولة من مئات السنين فأبقوا من بنات فكرهم وعقولهم للبشرية صخوراً وأجنحة من العلم لعل أرباب هذه الحضارة يوم سرقوها أو وجدوها مهملة على قارعة الطريق لاحارس عليها ولا آسف ، أخذوها وشيدوا عليها هذه الحضارة ..!!

فالذين بالوا على عقولهم من أبناء أمتنا وزهدوا فينا وراحوا حاشية رديئة لسلبيات هذه الحضارة يذموننا ويقدحون فينا قدحاً يبصق فى وجوههم لا آسف عليهم لأنهم ببغاوات وصدى لايحمل غير الجوع والظمأ لحامله ...!

ومهما حاولتُ أن يكون ثوبي واسعاً لايضيق بما فى داخله من وخزات الخارجين على هذه الرسالة أو المعادين لها أعجز فيقع التناقض عند من لم يشاركنى فى هذا المعتقد ، وإذا وقع التناقض بينى وبين رجل ثنى رقبته إلى التراب ولم ير مشاهد هذا الكون العظيمة ولم يرد فى حياته مورداً عذباً ، فليس أمامى الآن إلّا أن أقول : اللهم بصِّره ! اللهم أكرم آدميته بتوعيته ! ! وأيقظ فى نفسه وروحه ما كان راقداً ... !



خـــــرائب التـــاريــخ ..

أبــوىّ :

كم من مرة أنخت مطيتى ثم أثرتها وأدلجت فى خرائب التاريخ وأطلاله ، كم أوقفتنى حيرتى وذهولى متسائلاً : أتحت خطى جملى جمجمة جبار عاث فى الأرض فساداً ؟ أم أن تحتها جمجمة عابد تقى أدمى جبهته طول السجود لله ؟ وإذا رفع الجمل خفّه ثم خطا قلت له بصوت عال : ترفق فربما تضع خفك على وجه جميلة فاخرت بها أمها فى ليلة عرسها قمر السماء ، وقالت له وللنجوم المحيطات به لاتتعالوا على هذه الصغيرة الجميلة فهى من أكرمها الله وجملها بالإحساس والشعور والقلب العاشق ! أيُرَى من عاد إلى الوراء مدلجاً فى أسفاره وأدار ظهره لغائب لانعرف عنه شيئاً ولا عما يأتى به غده ، رجعياًّ تراجع إلى الخلف .....؟

أأنا هذا الرجعى ...؟ لا أعتذر عن ذلك سأظل رجعياًّ أمشى حافياً أو منتعلاً زاحفاً على ركبى أو ماشياً على قدمى بحثاً عن العبرة وعن الموعظة وعن الإنسان الذى طغى وتجبر ، كيف انتهى .....؟

سأمشي فى أسواق مدينته وفى خرائب أفعاله ، لعلى أرى شبحاً من ظل حائط بناه إنسانٌ ردىء ظناً منه أنه يستره ويستر عوراته ... فإذا هو من أصدق المخبرين عنه وعن أفعاله ، فعلى من ظن أن كل حائط يبنيه من الطين أنه ساتره وساتر مابداخله من تجاوز على القيم والأخلاق أن يدرك أن الطين سيتهدم وسيكون له قبراً وسيأتى من يسائل أطلاله ويقرأ أفعاله ، وماخرائب التاريخ والرسوم والأطلال بشفاه ميتة لاتعبر بجملة واحدة ...! ! والسؤال الذى يبقى يقظاً يرقب الأحداث فى هذا العصر متى يجيب عنه قلم المؤرخ ؟ متى يكتبه من دم الإنسان ومن عرقه ومن نفطه ومن دموعه ؟ منتظر ذلك . فتاريخ العصر ومؤرخه غير تاريخ كل العصور الخوالى ! !

إذا كانت هذه المناجاة الذاتية عبرات تسفحها على هذه الأوراق مكابدة لم تكن جائعة لِلقمة العيش ولا ألهبت ظهرها سموم الرياح ، فهى فى أمان من كل هذا ، وفى استراحة بناها له مهندس من أحجار الجبل ومن رمال الدهناء . أبهذا كله يكون الإنسان آمناً وسعيداً ..؟ أبهذا لاتجرى الدموع ..؟ أبداً ، فما بى وما يُجهض كل هذا ويرميه فى حلق الفناء هو الذى يُركبنى مركباً وعراً . والمركب الخشن ـ إن كان قتباً على ظهر جمل ما أنزلتنا الظروف عن ظهره ـ يوم كان لامركبة فضاء ولا مركبة طريق معبد ـ ليس هو المركب الذى يوجد

السأم والضجر فى نفوسنا أبداً ، ولكنه قلق العصر ! !

لا أتجاوز مسؤوليتى من نفسى إلى نفس رجل آخر. فقد أخافنى السير إلى الأمام ، أخافتنى غابته المجهولة فرجعت إلى الخلف أقف عند كل رسم درس فى حياتى . وأذرف دمعاً على أطلاله محاولاً بذلك أن يخف ثقل الطين عندى قبل أن يحملنى الأهل والأصدقاء إلى المدفن فيثقل كواهلهم !

ما هذه العودة إلى الخلف والرجعة إلى السير على الأقدام ...؟ جاءت سلبية ماعرفت مسالك موحشة فى فكرها النجس أو جسدها غير النظيف ، أبداً ، كم أخذتنا هذه الحضارة وأركبتنا على جناحها تقرأ لنا ويقرأ لنا فلاسفتها ومفكروها مذاهبهم ونظرياتهم ، وما أكثر مافيها ! وما قالوا : دعوة قليلاً ماجاء الحياء فى وجهها رغبة تثير أخرى ، وموجة عاتية فى بحار النفس تحمل الإنسان على عاتقها إلى حيث تقول له ارتويت فيقول لا ... تجربة مقياسها وأخبارها لم تكن منسترة ، ولكنها مفضوحة فى عالم كل مافيه يميل إلى الافتضاح . ليس هذا سرا تلصصَ إليه قلمى ، فأفشاه ، فعالم اليوم أكثر مافيه وماتراه وماتقرؤه عنه يثنيك إلى الوراء ويجعلك تقبل رجعيتك وتأخذها بالأحضان لأنها الصلة التى بينك وبين الله ، ولأنها الفرج الذى يخرج بك من الأزمات النفسية ، فما الأعمار وإن طالت وحنت

ظهر المفلسين من الأمل بما وراء هذه الحياة برابحة تجارتها ولافلسفتها ولاتعاض أفكارها بالأنياب ، فما أكثر من حطوا فى طريقنا مثل هذه الأفكار ، فلم ننصرف عنها انصرافاً لاوعى فيه ولكن قرأنا كثيراً وما أكثر مارفضنا وسنرفض من قراءات لاتقول : « قل هو الله أحد » ولاتعترف بالكرامة الإنسانية !

لأن هذه مناجاة وأحاسيس تذروها رياح النفس على هذه الأوراق صادرة من بُعْد ذاتى لامقياس بيدى أقيسه وأقيس معه معالم الطريق للعودة ـ إن قدر لى ذلك ـ لأخط رسائل أخرى ، أعتذر والعذر والمعاذير فى أعرافنا تكون عند كرام القوم مقبولة ، فإذا عثرت بى قدمى فى إحدى الخطوات التى أخطوها ، فهل لى من أمل عند إنسان لايحمله الغضب ولا التعصب لمائدته الخاصة فيحرّم على من ذبح ذبيحته وسمى وحمد وشكر ، طعامه الذى حاول بكل جهد أن ينضجه ويقدمه لضيوفه من عرق جبينه وكدحه . وإذا تنازلت كبرياء الإنسان عن آدميتها وشق عليها الكدح وضنت على متسائل بالجواب ماذا عنها . وعن سؤال ظامئ إلى الحقيقة فرى كبده الظمأ ....؟؟

تتساقط الألفاظ فى هذه الرسائل فى حالة عشوائية لا أنساب بينها ولاتجانس فى الخطى ، فكل واحدة من هذه الألفاظ ربيبة لظرف يومه أو غده ، صباحه أو مسائه ، قاتم أو مشرق ، جائع أو ظامئ ،

حالم أحلام اليقظة أو أحلام منام تضاجعه فيه همومه وتساؤلاته التى كلما أرسلها لتأتيه بالخبر ، عادت إليه مكسورة الجناح .

وأجنحة النفس لا أجنحة الطير ولا أجنحة سفن الفضاء هى التى أحاول دائما أن أتصالح معها وأن أزورها فى منازلها ، أسير باحثاً ليلاً ونهاراً فى فضاء الذات ، ولكن سيرى فى هذه المتاهات أعيانى أن ألحق بها ولا أدرى أجناحها قد طوته فى كهف من كهوف الذات ، وقالت:مالى ولرجل أعمى قيل له أبصر نفسك فتجاهل الأمر ؟ أأعود يائساً من هذه الرحلة الشاقة وأنكفئ على وجهى تحثو عليه رياح الجهالة تراباً من خربة تهدمت يوم ظلم نفسه صاحبها ؟ مالى والوقوف معتقلاً بعقال رث تقطعه يد الوليد ....؟ سأحاول أن أسير فى نية قناص مافكر أن يعود إلى أطفاله الجياع دون طريدته ليسد سغبهم ....

ماذا عن رجل ضاعت منه مطيته فمشى يسائل المارة من رآها ؟ فحار سامع السؤال فى رجل قال: من رأى مطيتى ثم صمت لم يستطع أن يصفها وأن يعبر تعبيراً يحمل السؤال مكتملا لأنه أعمى ما أبصر مطيته التى ضاعت فى متاهات لاعلامات عليها ، أيمكن لرجل غريب عنه وعنها أن يهديه إليها ...؟ أبداً مستحيل ، مثل هذا لايمكن أن يكون ، ألا ينطبق على الإنسان نفسه ومسؤوليته من هذه

النفس ، فهو وحده الذى عليه أن يدلج فى أثر ضالته ، لعله يلحق بها أما إذا أضاعها فلا أحد مسؤول عن هذا الضياع ولا أحد يستطيع أن يقول هذه ضالتك ، فجناح القطا أو جناح العقاب أو مسار النجوم والشموس كوكبة من الرموز خالية ظهورها من الفرسان ...؟ بعيدة هى الأعماق فى عوالم هذا الكون وبعيدة هى أسراره وحكمة الله فيه .

فتصوراتنا لجناح حمل الطير من أمامنا وعلا به إلى فوق ، وحسراتنا عليه تمشى معنا فوق التراب أتراها هى التى أثارت فى أعماق الإنسان التساؤلات الكبرى عن دوره فى هذه الحياة ، وهل أنه سيد العشيرة أم أنه لانسب بينه وبينها فلها الجناح ولها العلو ، وله السير على القدم وله المدفن ، وله التأرجح فيما بين الأمل وضده ...؟

أأسير متسائلاً تساؤل رجل يعظم الله ويكرم نفسه فى إكرامه لأخيه؟ وماكل من سار على الدرب اهتدى فى سيره ، ولكن النوايا هى الخطى التى فيها الأمان وإن عثرت وانكسرت قدمها ، والنوايا التى أحملها أو تحملنى إلى تساؤلات بعيدة لاقبضة فى يدى من ترابها أو من قوادم ريشها ، أتحسس طريقى إليها من بقايا كبرياء آدميتنا التى أكرمنا الله بها ، أأتعالى بمميزات العقل والوجدان والمدركات والإرادة التى تستطيع أن تحتمل فى صلابتها وقدرتها وقوتها

ثقل هذا الكون ، وإن تآكلت فكرة العدم وقالت : لاجناح لى يرفعنى أكثر من أشبار وفلسفتى ترابية وفكرتى عدمية ...؟ أحفر قبراً عميقا لاقرار له وأدفن فيه كل وسوسة أو تصور يخلط الأوراق فى نفسى ، ويقول كيف تؤمن وكيف تفسر هذا التناقض وهذه الأضداد التى لا رد لى عليها إلا أن أقول لها : اذهبى بعيدًا إلى قبر لا بعث بعده فالعزيم الذى حملك إلىّ وإلى كل إنسان هو عدوّى فى هذه الحياة ولن أعود من رحلتى خاسرًا يقودنى بحبل الغواية منكس الرأس ذليلاً فرطت فى آدميتى يوم سرت وراءه ظلاً لا حركة غير حركته ! ؟ . لا أتعالى بهذه الألفاظ العائمة على هذه الأوراق وأقول لمطيتى التى أدلجها ليلاً ونهارًا فى سبيل النجاة من اللصوص ومن قطاع الطرق وأبالسة النفس استريحى فى ظل ألفاظى ، أبدًا سيظل الخوف والرجاء جناحى طائر يلازمانى ، أرجو ألا ينكسر جناح الرجاء فأسقط جريحًا فوق التراب ...

وبدوىٌّ مثلى ...!

أبوىّ :

بدوىّ مثلى خَلِقة ثيابه مايثة بالرقع لا شىء فى يده فيعطيه أهو متسول وجائع إلى الحقيقة ؟ ومراكبه إليها أهى جافلة من أشباح الطريق الذى يمشى عليه فى رمضاء القيظ أو برودة الشتاء عارياً إلا من هذه الخرق البالية ؟ فمراتع عبلة أو منازل خيام ليلى العامرية فى أيام الربيع لم تزرها مطاياى ولم ترع فى ربيعها ، بل ظلت قفراً إلا من ذكرياتنا عنها ، والذكريات أفيها عشق دفناه فى أتربة الزمن البعيد فنعود إليها لنحرثها حتى نلحق بها ؟؟

تسير بنا الحياة فى مواقيت لاتخلفها فإذا تناقضت أحكامنا نحن البشر وتعقدت مشاكلنا وسننا لها القوانين تظل معبرة عن أمزجتنا وأهوائنا ومصالحنا نحن الذين نملك سن القوانين ، ومتى جاءت غير الزمن وحطت رحالها لأخذ من قد أملى مزاجه سرعان ماتلحق بخلفه آفة النسيان ، فيتصور أنه فى أمان خادعه فيه سراب النفس فظنه مياهاً تروى عطشه !

لا أملي مثل هذه الرسائل من غدير أوردته قلمى مع الواردين عليه ، أبداً ولكنى فى محاولة مع نفسى ومع الحياة والفناء ومراتع النجوم البعيدة فى قفار مارعت ربيعها قبيلة من القبائل البشرية ولا زارتها تساؤلات حاملة معها زادها ،فالذين ظنوا فى التاريخ أنهم زاروها بظنونهم عنها وفلسفتهم وذرعوها بأبعادها لا أتصور أن واحدة من هذه الكواكب تعاطفت مع زائر لها على جناح الخيال أو على جناح العقل والفكر فعاد إلينا بالخبر ، ولكن دخول الإنسان مع نفسه ومدركاته العقلية فى صراع رهيب قد يجعله ينتصر على كل السلبيات التى لاتريد له أن ينتصر على نفسه ولاتريد له إلا أن يبقى ملتصقا بهذا التراب حياً أم ميتاً ،والحياة وإن كانت جميلة وعشقناها عشقاً ولاعشق قيس لليلى ، أفيها وعندها هذا العشق لنا وهذا التعاطف معنا ...؟ لا أدرى وقد نختلف نحن البشر على هذه الحالة التى بيننا وبين الحياة ، والخلاف والشجار ولك واد ولى واد ، ولك قطيع ولى قطيع ، أيمكن أن تترك لى قطيعى ووادىّ وأترك لك واديك ؟ من نسأل ...؟ عند من نتقاضى ..؟ إذ أن سلوك الإنسان فى الحياة كثيراً ماتلطخ بالدم القانى وبالفجور الذهنى والعقلى ؟ والنفس التى تمشى بحركة بطيئة إلى المثل والقيم هى فى المياه المالحة أو الكدرة تصارع الموج وتشرب عنفه وصخبه فى صدر رحب وذهن صبور ،

والصدفات الثمينات فى مياه البحار ما رأينا واحدة منهن طفت على السطح ، ولكن قرارهن واستقرارهن فى أعماق البحار وهذا ماقد ينطبق مثله على الإنسان نفسه ، ولكن أين الغواص الذى لايضيق نَفَسه ولايختنق من النزول فى انحدار سريع إلى أقصى القاع فى النفس البشرية ليجنى لرقبة الإنسان العاطلة من الحلى لآلئ وجواهر من أعماق البحار النفيسة فيعلقها عقداً ثميناً على رقبته بدلا من حبل المشنقة ، فالذى أخذه قدره إلى حبل المشنقة ألا نتصور أنه تغلبت على جوانب الخير فى نفسه ظروف وأحوال حتى سقط فى الفخ وربما يكون جائعا ظن أن فى الفخ طعماً يذود عنه غائلة الجوع والظمأ ..؟ لا أتصور أن هذا إنسان شرير وهذا إنسان خير ، ولا أجد فى إنسانيتى أن أحمل الميسم وأسم به وجه هذا أو ذاك ... هذا ليس من حقى فكل مولود يولد على الفطرة ، ولعلى لا أخطئ حين أنسب إلى شريعتى وعقيدتى أمراً صدر إلىّ وإلى كل مسلم من فم النبى العظيم : لاتلعن الكافر وهو حى فقد تدركه رحمة الله فيتحول من الكفر إلى الإيمان . أبعد هذه السماحة وهذا الباب المفتوح على مصراعيه لكل إنسان رغب أن يدخل منه إلى ساحة الإيمان تستقبله فيها رحمة الله به وبتحوله من النقيض إلى النقيض عذرٌ أو تجاوزٌ على سماحة العقيدة وحرصها الشديد على تحرير الإنسان ونقله من تجاويف النفس الترابية

إلى مافوق الغمام والسحب الطاهرة ....؟

كم تساءلت وأنا أخط هذه الرسائل لماذا لا أبقى مع مشاكلنا اليومية وحياتنا على هذه الأرض التى أحالها العلم فى هذا العصر إلى قرية واحدة كل مافيها يعرض نفسه وطريقة حياته ..؟ لماذا والأقلام فى يد الكاتب والمفكر والفيلسوف تتحرك ليلاً ونهاراً تحاسب الإنسان على الصغيرة والكبيرة؟ وأكثرها أقلام غير عَفَّةٍ وغير نظيفة فى أحكامها على سكان هذه القرية التى قال العلم عنها : إنها قد لاتساوى حجم ذرة من ذرات هذا الكون . هذه الذرة ما أكثر ولدانها وما أكثر مافيها من صراع عنيف ! ولأنى أرى طرح الإنسان نفسه فى محيطات واسعة ظنا منه أنه سباح ، وهو غير ذلك ألا يكون فى حكم من انتحر...؟ والانتحار فى عقيدتى قتل متعمد ، عليه قصاص عند الله . لذلك كثيراً ما أهرب إلى نفسى وآخذ منها ما أستطيع من صور ثم أضعها على حائط الورق وما كان خارجاً عن النفس فى هذه الرسائل وأخذنى إلى الخيال وإلى النجوم والكواكب والأقمار والشموس قد يكون طريقاً سهلاً المشىُ فيه على شيخوختى ، فالشباب الذى ولى لو عاد إلىّ لجلدته جلداً عنيفاً ولأدخلته قفص الاتهام ، ولكن ما كل مامضى يعود وتأتى به الحسرات .! ومطالع الأقمار والنجوم والشموس ستشيخ ويغيب شبابها ولن يعود مثلما غاب

شبابنا ولم يعد هنا بل سيعود هناك فى ملابس أخرى وموارد مختلفة

كلما رفعت رأسى إلى السماء أو خفضته إلى ذاتى تظاهرت أمام بصرى وبصيرتى عظمة الخالق وجلال هذه العظمة فلحق بى تفاؤل لاجدود له ولا مرارة فى حلقه ، بل عذوبة تلقيها فى حلق هذا التفاؤل رحمة الله بالإنسان فى هذه الحياة وفيما بعد الحياة.

والمذنبون والعصاة منا ... والساجدون والراكعون ليلا ونهاراً والبارّون بإنسانيتهم والمكرمون لها منذا يستطيع أن يتعالى على الله منا نحن البشر ويصدر أحكامه عليهم فى يوم المحاسبة ؟ يمكن للإنسان أن يصدر أحكامه من هنا على المشاكل التى تعترض مجتمعه وتخالف شريعته أو قانونه ، وهذا له مايبرره فى حدود الاجتهاد والعدل. تجاويف نفسية وأودية ذاتية كثيراً ما اعترضتنى وأخذتنى عن هدفى من هذه الرسائل وخرجت بى إلى العراء لتبعدنى عن مشاكلى الخاصة أتساءل عن منازلها وعمن فيها من القبائل ومثل هذا التناقض الذى لاقدرة لى على ترميم تصدع حيطانه أو قهر سيل أوديته العرمة كيف لى وكل شىء عندى يرتعش من الخوف ومن ردائه البناء؟ أخشى ما أخشاه أن تتداعى هذه الحيطان وهذه الأتربة عندى على الجميل الذى أكرمه الله ... وجعله فى أحسن تقويم !!

وعلى ركائبى التى شاخت وعلاها الشيب رحلت ، وقالت لها

السنون الطويلة أنيخى أمام مرآتك التى علقها القدر فى أقصى الطريق الذى تمشين عليه ـ لكى ترى من الذى شاخ وتجعد وجه شبابه وصار من بعد قوة إلى ضعف ومن بعد أن كان عدّاء إلى جَمَل هزيل قَيده الهزال بقيد رهيب لم يستطع معه أن يصل إلى الربيع وإن كان لايبعد عنه خطوات .

وفى هذا المناخ الذهنى الذى بركت بى فيه مطاياى أمام مرآتى الخاصة حاولت أن أستنطق الصورة التى عرضت نفسها أمامى فلم أستطع ، تداعت على خاطرى ـ والمرآة تتذبذب فيها الصورة ـ أن الربيع الذى قيدنى الهزال عن الوصول إليه لم يكن الوصول إليه مستحيلاً . ولكنه شاق ، فالقيد الذى قيدنى وربما قيد سواى هو قيد ترابى تداعى على الجميل الذى أبحث عنه فى متاهات النفس لعلى به أصل إلى الربيع وأخرج بنفسى من متاهات تتذبذب عليها صورة مرتعشة تهتز اهتزاز الحيطان التى تميل إلى التداعى ودفن إنسانيتى التى أكرمها الله إننى فى حالة من المحاولة ، وإنها وإن كانت شاقة وعسيرة تشفع لى عند العالم بهذه النوايا وهذه المحاولة فما قلت فى حياتى ، شابا أو شيخاً ، لشىء : هذا عظيم أو كبير إلا تعاليت بعظمة خالقى وبارئى عن كل تعبير قد تسوقه الألفاظ فى دروب الحياة ومشاهد هذا الكون . فما خلطت فى ذهنى وفى وجدانى بين وحدانية

الله التى قامت عليها كرامة الإنسان واعتزازه بذلته وعبوديته لهذا الخالق . ولاعفرت جبهتى بالتراب وسقطت عليه سقوطاً لا أرى فيه غير ارتفاعى وعلوى إلا آمنت كل الإيمان على قدر طاقتى ومعارفى أنى بذلك أصعد وإن كانت الخطايا والذنوب تجرنى وتجذبنى دون الصعود والارتقاء . وما هذه الاعترافات أو هذه الحالة التى عبرت عن نفسها بهذا الشكل بقائمة على تجاوزات يمليها الغرور وفوضى الألفاظ . ولكنى يوم أرى أخى المسلم يتطهر فى يومه وليله خمس مرات ليحنى قامته ويمرغ أنفه وجبهته فى رغام الأرض إجلالا وتعظيماً لخالقه أشعر شعوراً بالغاً أن هذا الرجل المسلم المؤمن لو وضع السيف على رقبته جبارٌ عنيد وقال : أعطنى انحناءة هى من حق الله لرفض فى اعتزاز وقدم رقبته فداء لوحدانية خالقه.. ! ! أحمد الله أنى مسلم ، أحمد الله أن أبى إبراهيم قال : أنا أول المسلمين . . أشكر الله على أن دينى أعطانى النظام الذى فيه سعادتى وحياتى وخلودى ، أحمد الله كثيراً وأشكره على أنها رسالة رحيمة بالإنسان ، والرحمة هى الأمل . !

ما أكثر الذنوب والخطايا التى أذودها عن فم القلم لكيلا تخرج من السريرة إلى العلانية فتؤذى المارة ! ! ولكنها خطايا وذنوب ما كانت ولن تكون فى عفو لله ورحمته إلا قاطع

طريق ساقه الجوع والسغب إلى ذلك فأسقط عنه الخليفة الثانى رحمةً به فى يوم الرمادة قطع اليد ! !

هذه هى رحمة الإنسان فكيف برحمة الله .... ؟



مطايا أكل السرى أخفافها

أبـويّ :

بالأمس أخذنى جدل مع نية المؤرخ وقلمه فى ملاحقة الأحداث ، وحاولت أن أتعرف على كاتبه وماذا يعنى مايكتبه وماهو التاريخ ومن هم مادته وأهله الذين يحملهم من جيل إلى جيل ، فإذا المحاولة تعوج رقبتها إلى وتسائلنى ألك فى التاريخ ضالة تبحث عنها ....؟ فمشيت ولم أعطها الجواب ، فكل سؤال وجواب عنه لاتقبض عليهما يد مغتسلة ونظيفة من الأوساخ قد يؤذيان بروائحها الكريهة روائح الربيع ويكدران على الراحلين إليها رحلتهم إليه ، وفى عصر الجمل والحصان والرجل الشجاع ممكن لكاتب التاريخ أن يجد له مكانا فى خيمة الحدث فيجلس معه يسائله فى جدل يضع لكل عضو من أعضاء الأحداث منزلا عند قلمه لا تخلط فيه أهواؤه بين الأعضاء .

وربوة فى قلب الصحراء لاتجاورها أخوات لها ولاجبل يتعالى عليها كتعالى القصير على الطويل هى اليوم تنتظر من يضرب خيمته

عليها ويقول : هنا يطيب لى المقام فى قلب الدائرة التى فيها وعليها حامت طيور الفضاء وحمحمت أحصنة الفرسان ، وبغمت من وعثاء السفر مطايا أكل السرى أخفافها وسنامها ومن فوق كورها الرجل الشجاع ما أنزلته من فوقه حليلته ، وقالت له : فراشك وثير ، أبداً ، هذا تاريخ الأمس ومنتظر من يكتبه بأمانة .

واليوم ونحن فى عصر غزو الفضاء ، واليوم ونحن فى عصر مطاردة الماضى بقيمه ومثله ومقدساته من سفه هذه الحضارة وتعاليها على أيام الحصان والفارس ، ماذا يستطيع كاتب التاريخ أن يكتب والأحداث مسرعة على جناح لم يكن ليومه وغده ؟ ولكنه متلون ومصاب بداء القلق والسأم ، جناح اليوم يكسره جناح الغد ، وهكذا حياتنا المعاصرة لاقرار لها ولا شىء يمكن أن تقبض عليه يد ولو لأيام أو ساعات ،كل شىء لا يقبل الإقامة فى يد إنسان أو فى عقله ، سفر وراء سفر وحركة لا تهدأ ،وإنسان قد يتعالى على إنسان ويحوله إلى رقيق ، فاكتشافات العصر رهيبة وحادة الطبع منفعلة فى الأرض أو فى الفضاء انفعالا ليس كانفعال العقاب دون فراخه ، أتصور أن التاريخ اليوم لم يكن قلما ولا ورقا ولا أكواما من الحديد والأحجار ، ولكنه صور تتلاعب بعقول البشر وآدميتهم ، وعلى مفترق الطرق بين الماضى والحاضر يقف اليوم إمام الجماعة وخطيب المسجد ومؤذنه ،

وكل الرموز الخيرة التى تُدين الجريمة وتُدين المعصية وتدين الظلم والجور وتدين الإلحاد وتدين التعالى والتميز . وتدين كل من فسق بالعلم وجار به على هذا الكوكب . تدين كل من ظن أن الحياة غاية وأن الوسيلة إليها عشوائية لا لجام لها ولا رسن ولا ذراع يقبض على الرسن ليكون للحياة معناها وللعلم فضائله وقومى الذين أكرمهم الله بـ (سورة اقرأ) فى أنحاء الأرض . أيدرون ماذا يجرى فى عالم يتصابى على شيخوختنا ؟ فى عالم يقول قائله : إن مافى أيدينا الآن من ذؤابة العلم غدا سنقول عنها : أنت خرافة . أنت قبيلة من القبائل البدائية لأننا فى الطريق الذى نريده ونرتاده ستبور فيه السرعة الضوئية ، وسيبور فيه كل ماهو فى قبضتنا الآن .... لا أدرى أأنا بهذا أحلم ، وأتجاوز المعقول إلى اللامعقول ....؟ ليتنى هكذا وليت الأحلام التى تزورنا فى كل لحظة بمضاجعنا أو على جنبات الطريق تقول لنا هذا خيال ، والخيال لايحسب على الحقيقة .... ولكن الحقيقة لاتقبل من يقول عنها . خيال فى ذهن مريض ومشوش .

والغريبة اليوم فى مجتمعاتنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ والبائسة هى الرحمة بيننا ، هى عاطفة الأم على وحيدها والتى ليست غريبة ، هى القطعية ، هى مد أيدينا لأسلحة الفناء ممن يصنعونها لنقتل بها ذاتنا ووجودنا والتراحم بيننا ، لنقتل بها كرامتنا فى عالم لايريد لنا كرامة ،

وأخطر الخطر علينا أن نرى على قارعة الطريق أمًّا تضع على صدرها أربع صور لأبنائها تبكى وتستجدى الشارع أين هم ...؟ من قتلهم ...؟ من أخفاهم ...؟ أهم أحياء أم أموات ...؟ عجوز بائسة وأخت لها تقتل نفسها لأنها بكت ثم صرخت ثم نادت أن ردوا إلى ابنى الذى كابدته حملا وتربية وأردته خيرا لى ولكم فلم تجد مجيباً فانتحرت ... أبعد هذا وحشية فى عالم البشر...؟[1]

ماذا أصابنا ...؟ ماذا حل بنا ...؟ أنحن هائمون على وجوهنا فى بيداء لا علامات عليها ولا هادٍ يهدينا سواء السبيل ، ما قيمة بيتى الذى فيه آمن وحدى ، وأخى وجارى وابن عقيدتى لابيت له يأمن فيه .

لا أدرى ونيتى مع هذه الرسائل أن تكون حشاشة نفس لاتروغ الخاطرة عنها ولايقبل القلم أن تملى عليه مالم يكن منها ، كيف تغلبنى صورة أو صور تتراءى لى فى ملامح أنجذب إليها على غير مانويت ؟؟ أتساءل وقدماى تمشيان على كثيب من الرمال كلما حركته الرياح خفق الرعب فى نفسى : أفى داخلى تهب رياح عاتية وتذرو من رمال النفس مالم تَذْرُه رياح هبت على هذه الرمال ثم جمعتها على جبهة

(١) فى لبنان اليوم .

الأرض فى مكان آخر؟ حالة نشاهدها فى الصحراء . ولكن الذى أعيانا أن نراه هو ماتذروه الرياح داخل النفس ولا نجد له مكاناً فنرتاده ...!! غموض غارقة فيه المحاولة إلى حد الموت . ولعل لنا فى هذا الغموض الذى لا أمل فى أن نلحق به حكمة جليلة وعظيمة تدفع بنا دائماً فى اتجاه الخطو والحركة والتساؤل فهذا الطير الذى يلاعب صغاره على جنبات الغدير ويدربها على الطيران من يدرى ماهى مسؤوليته من هذه الفراخ ومن هذه الحياة؟ لا أجد فى هذا الكون حركة من جناح هذا الطائر الصغير أو من جناح كوكب غارق فى أعماق هذا الكون يدلى بشهادته على أن التساؤل لم يكن حجراً يؤذى المارة فى الطريق العام ولكنه جناح تحاول الفطرة وتحاول المسؤولية أن تدرب عليه الذات فى الإنسان .

على سطح القمر يقال لى أنت متخلف ....!

أبــوىّ :

ما أكثر مالامتنى ذكرياتى !! وما أكثر مالامتنى أوراقى !! وما أكثر مازارتنى فى أحلامى أحداث هى من أيامى . وهى من منازل قومى !! هى لم تكن خيالا ولم تكن منازل فى ناطحات سحاب ، ولم تكن ملابسها غير عربية صرف ، هى حصان وجمل . وهى إنسان شجاع ، وهى تجاوزات قال لها راكب الحصان أفسحى لى الطريق وانزلى عن حصانك ، هى آلام ومسرات هى جوع وظمأ ، هى كادح فى مزرعته ، وهى بدوى يرتاد لجماله مفازات بعيدة . هى عادات وتقاليد ، هى رياح هبت فبددت العشيرة وحاولت أن يعق الأخ أخاه ، والصديق صديقه ، هى لون من الحياة ، لون غير أصيل ، هى جمل أصيل أصابه الهزال حتى يبس عظمه فلحق به الربيع فبنى سنامه ، من ارتاد له الربيع وحمله إليه كابده حتى استن حاشى أنثاه ، هى اليوم لم تعد عشيرة . هى اليوم أمة تمشى على مدرج الحياة بمفهوم الأمة ، وللائماتى من الذكريات أو لائمى لماذا لا

أحمل هذا كله إلى التاريخ وأسلمه له أمانة على ذمتى ؟ أقول : متى كان التاريخ فى مفهوم الأمانة معصية بين الإنسان وربه يعود إليه تائبا آيباً ؟ التاريخ لم يكن هكذا ،هو خوض فى نوايا الناس وفى دمائهم وفى أعراضهم وفى عواطفهم وأفكارهم ومطاياهم التى أدلجوا عليها ليلا ونهارا ، هو ميزان ثقيل لاتحمله يد لاتملك ناصيته ، هو حق مشاع لجيل أو أجيال قد تأتى كلها تحتج على كاتب التاريخ وتحاسبه وتطالب بحقها منه فى يوم يُنصب فيه ميزان العدل بين بنى البشر...... ! ! ما أكثر ما أشفقت على كاتب التاريخ وتساءلت عنه كيف كتبه ، وعلى أى مفهوم حمل هذه الأمانة فى رقبته ؟ قد يكون حكمه حكم قاذف المحصنات ، قد يكون حكمه حكم كل شاهد ، للقاضى العادل أن يتعرف على ذمته وأمانته ، ربما يكون فى مسؤوليته أخطر من حالة فردية عند قاض من قضاة الأرض . مايسمى تاريخاً ما أكثر ما ضلل الإنسان ، وما أكثر ما أركبه مركبا وعرا وما أكثر ما حوله إلى مواريث من الأحقاد والبغضاء ! ! ما أكثر من ظلم فيه ومن أملاه على قلم ردىء منافق متسول ! !..... ما أكثر هذا وما أقل من زحزح نفسه من الرجال عن هذا النوع من الأقلام الرخيصة ومشى فى خطى وئيدة وأمينة ، هو ماتحلله وتدقق فيه عن الصواب والخطأ أمانة القارئ والمثقف ، هو اليوم فى عصر لاتجوز عليه أحلام اليقظة

فتصير من الأحلام العظام ، أبداً ، ولبلادى فى تاريخ البشرية ولأمتى دور عظيم وبعيد فى تأثيره على عقل الإنسان وفكره . هو دور طارده سراق الأفكار واللصوص وقطاع الطرق . وقالوا هو منا ولنا . واللصوصية فى سرقة محفظة نقودى أو سرقة متجرى أو حتى سرقة صفيحة من بترولى ليست هى السرقةَ الموجعة ، ولكن السرقة الموجعة أكثر هى أن تسرق أفكارى وإبداع عقلى وما علمتنى إياه رسالتى الإنسانية ، وهناك على سطح القمر يقال لى أنت متخلف .....

أأنا بهذا أذود الطير والناب المفترس عن حبات السنابل وعن رقاب مآذن مساجدى ؟ أم أننى آكل نفسى بنفسى وأهرب إلى الخفاء آخذا من ثقل مسؤولية المؤرخ حجة وملاذا ألوذ بهما عن المساهمة ولو برسالة واحدة عن كأس شربناه مرا ثم حلوا مذاقه ؟ كأس أخذناه من يد المنية وقاتلنا عليه السباع والضباع ومفازات يطّرد فيها السراب ....؟!

متى كان هذا ؟ ما قومه مايومه ؟ هو بعيد فى أعماق التاريخ وفى علو الزمن ، ولكن ماكان بعيدا منه ليس فى قدرتى اللحاق به ، لن أزوّر نفسى وأزوّر قلمى وألبس لباس التنكر وأخوض فى معركة صفين وما جاء بعدها ... هذا الطريق البعيد لايمشى عليه غير عقل نشط وذهن لم تكن البارقة فيه بارقة صيف ، ولكنها بارقة ربيع . قد

يأخذنى الحنين ويأخذنى الحب وتأخذنى حليلة بيت أنزلتْها فى ذهنى شرعية أذود عنها أن تجاورها فيه جارة سفاح ، وإلى أين هى آخذتنى ؟ هذا السؤال الذى يطاردنى الجواب عنه وتطاردنى ذكرياتى وأوراقى ومكان أمتى الآن من هذا العالم ، والمطاردة لرجل خائف وهارب بنفسه من أن يركب مركبا صعبا ووعرا كيف به أن يستجيب للسير على طريق على جنباته تقف أحداث فيها الأمهات وفيها الآباء وفيها الإخوة والأشقاء وقوفا صامتين ، منذا يستطيع أن يستنطقهم ويقدم لهم نفسه ويقول لهم أهذا سجل عن آبائكم وأجدادكم ؟ من يستطيع أن يقول هذا لحاضر اليوم وغده وهكذا؟ أهذا شىء سهل على من لايبنى من خياله المريض أكاذيبه ونفاقه من أجل جيبه المفتوح ؟.... ولأنى لا أحمل قلما من غير أقلام الصحراء ولا أبنى ألفاظا من رمال الدهناء ولا أستبيح لنفسى عقوق الأمهات والآباء وإن كانوا فى الصف الذى لا أقف فيه أمضى فى سبيلى وراء الهدف محاولا أن أغتسل من ماء الغدير فأعوامى كم نقلتنى من مكان إلى مكان، وقالت لى بعد حساب دقيق: هذا مكانك ، وهو مكان واق من رياح السموم أو برودة الشتاء ، والعَلَم الذى رفعته يد القائد هناك على سارية هيئة الأمم هو الذى تقضى الأمانة أن تقص أثره أقلام محقونة من عرق الأحداث ودمائها وأوجاعها وأن تبنى فى ذهن

المواطن المعاصر أن هذا العلم الواحد هو بيته ، وهو مجده وهو رمز وحدته وكرامته بجوار إخوة له قد يأتى يومها المبارك فتودع سارية هيئة الأمم وتبقى العلم علم (لا إله إلا الله محمد رسول الله) لتقص الأقلام الخيرة والعاقلة قصص الدولة الحديثة ولتبن فى قلب الإنسان العربى من الجزيرة العربية أو من سواها كيف حققت الوسيلة الهدف العظيم . وقلمى الذى بيدى الآن تدنو منه واحدة من الذكريات فتقول له ، سجل أن لى أخوة وأبناء عمومة وأبناء خؤولة وأبناء قرية وأبناء قبيلة جملهم تيار الهدف إلى بناء الدولة من العشيرة من أفخاذها ، من القرى المتناثرة المتباغضة ، من الآلام ، من العزلة ، من التبدد ، من الضياع ، سجل هتافى تحيا الأمة وتحيا الوحدة ولو على آلام أهلى وقومى ، ذاكرة نبيهة تعى معنى العصر ومعنى الأهداف الكبيرة ومعنى العزة والكرامة ، هتفت لوحدة اعترض طريقها ، جاهلاً ، أخوها أو أبوها فمشت وهى اليوم تبنى لها الجامعات والمدارس وتدنيها من النزوع إلى أن تلحق بقافلة المسافرين وراء أسرار هذا الكون ، هذه الحقيقة وهذا الواقع الذى جمع الأعضاء المبددة وزرعها فى جسم الأمة بعد أن فرقت بينها الظروف .

أبـوىّ :

فى رسائلى إلى أبى الطيب أعطيت على نفسى وعدا متى أعطتنى

الظروف إجازة من العمل الرسمى أن أعود إلى مكان صباى وفى
جناح الجبل الذى استضفت فيه أبا الطيب أحاول فى أمانة الشيخ
المسن والقريب من مدفنه أن أكتب ذكرياتى ـ ولا أقول مذكراتى ـ
أن أكتب ما أستطيع أن أدعمه بورقة غير كاذبة وموقف عملاق
لاينثنى رقبته إلى ركبتيه مُنكرُ حقيقة أو ذاوى وجدان ، سأبذل
جهدى آملا ألا أغلط فى الحساب ، فالأرقام ضخمة قد لا يكون
بجانبها صفر واحد . هى قيم ، وهى مثل ، هى خيل وجيش
وشجعان ، هى شاعر ، وهى وادٍ ، وهى قرية وهى مدينة ألغت
العزلة فصاحت أبقوا علىَّ عزلتى لا تلحقونى بقافلة الأمة ، قالت
ذلك بالأمس ، وهى تقول اليوم : ما أعظم من برَّ بى وأحبنى وأراق
دمه من أجلى حتى لا أكون قرية متصعلكة أو واديا ينعق فيه غراب
البين فى عالم حشر فيه المتصعلكون أنفسهم من أجل وجودهم ...
أعد بهذا وإن لحقت بى المنية قبل أن أفى بوعدى فسأعد ما أمكننى
إعداده وأسلمه لمن يفى بهذا الوعد إن شاء الله ......

أبكى بكاء أرض عطشَى

أبـويّ :

فى كل رسائلى طوحت بى خيالاتى أو آلامى أو تصوراتى بعيداً عن ذلك اليوم الذى أطلقت فيه أول دمعة من عينى ، وصرخت فى وجه من نقل لى الخبر وقال لى : مات أبوك ودفناه على شاطئ الخليج !.. ودمعة طفل لايتجاوز عمره ست سنوات أو دمعة أمه التى ترملت ، وفى حضنها وعلى صدرها طفلان ثالثهما أنا ... أأطوى أوراقى وأتجاوز هذه الذكرى الأليمة بذكرياتى التى لم تكن فيها هذه الذكرى اليتيمة والأم المرملة ... والظروف القاسية ...؟ لا أحتمل حبس دمعتى ، والدمعة الأولى أو الدمعة الثانية على هذه الرسالة مجراهما واحد ، وإن اختلف الزمان والمكان والظروف وصارت العبرات والدموع فيضا وطوفا من عيون اليتامى والمترملات فى هذه الأيام . ما أبعد الذكرى وما أرحم أيامها بالطفل وأمه من الجيران وأهل القرية ...!! فقريتى التى درجتْ بى قدمى على ترابها هى اليوم نزيلة فى قلبى وفى روحى كلما مررت بها راقدة بين الجبلين فاضت

عندى العبرات وتداعت الذكريات. كم من مرة حارت بى قدماى أمامها وقالت لى لاتسر! ابق هنا وامش مع ذكريات الطفولة والأصدقاء! وما عصيت الأمر مرة واحدة، فعشرة أعوام هى ذكرياتى الجميلة فى هذه القرية التى غادرتها إلى بلد أهلى وعائلتى، وكان الوداع آنذاك بكاءً وصراخاً وتمرداً على الرحلة ولكن ماذا فى استطاعة صبى صغير أخذه ولى أمره أن يفعل؟ لا شىء ....

فى قرية الأهل التى حملونى إليها لم أطق البقاء، وفى يوم من الأيام هربت منها حافياً أمشى على قدمىَّ من الصباح إلى المساء وهذه هى المسافة التى بين القريتين ودليلى فى هذه الرحلة البكر فى حياتى الجادة ..... وكل من قابلنى عليها أسقانى وأطعمنى، وفى مساء يومى ذاك دخلت قريتى، وأول مكان اتجهت إليه هو ملاعب رفقائى وأصدقائى، وقد تورمت قدماى من طول المشى فأخذونى إلى أمى وكان مشهداً أليما لا أستطيع أن أضع له صورة .... ظلت أم الصغير تعالج قدميه المتورمتين بالماء الحار والملح، أما أهلى الذين هربت عنهم فقد اضطربوا وظلوا يومين يبحثون عنى وأخيرا جاءهم خبر أن الطير الصغير عاد إلى عش أمه، ذكريات تعجز مشاعرى وذكراى التى تخشبت وجفت أن تكتب عنها ولربما أنها قصَّة كل طفل يتيم وأرملة حملها القدر مالا تحتمله.

لقد تصلب عودى على العناد وعلى الرفض أن أعود إلى بلدى (المجمعة) من بلدى الأول (حوطة سدير) حاول أخى الأكبر بكل وسيلة ومواعيد جميلة أن يأخذنى فرفضت إلا أن ينقل أمى وأخوى الصغيرين معى إلى المجمعة فقبل بالشرط وقبلت أنا بالعودة . والقصة أو القصص التى تتداعى لا أجد من طرحها هنا فائدة لأحد .... هى ظروف وأحوال وأمزجة وبعد نظر أو قصره ، هى التزامات شديدة وقيود ليس من حق صغير أن يحتج عليها أو يرفضها ، هى سحابة صيف أو سحابة ربيع ، هى حر يشوى المشاعر مثلما يشوى الجسد ، هى برد قارص والثوب واحد لايتعدى الركب ، هى حالة عامة يتساوى فيها الأخ مع أخيه والجار مع جاره ، هى أيام ربيعى وهى أيام براعتى وهى سمائى الصافية وربيعى الذى ما تصورت أن يأكله الصيف .... وفى عام ٥٢ هـ ، وكان عمرى ست عشرة سنة ، تطوعت مع من تطوع أيام اختلف الأخ مع أخيه والشقيق مع شقيقه أيام اختلاف أيام اختلفت الرياض مع صنعاء فركبنا جمالنا فى أول رحلة لى مع الصحراء نسير ليلا ونهاراً وفى أقسى الظروف معيشة وطبيعة ، واصلنا السير أشهراً ذهاباً وإياباً ، ومن فضل الله على البلدين وعلى الشعبين الشقيقين أن الأخوين الكبيرين الملك عبد العزيز- رحمه الله- والإمام يحيى- غفر الله له- تفاهما فى حكمة

الرجال الكبار فقيل لنا عودوا . ويوم عدنا ماكان ينتظرنى غير الفراغ أو العمل الشاق فى الصحراء ...... وقد مارسته ثلاث سنوات مثلما يمارسه غيرى ، وكان أخى الأكبر ورب العائلة لديه من الفضائل ومن الإحساس بالمسؤولية العائلية ما أبقى له ولنا مكان والدنا فى البلد مليئاً بالرجولة وحسن الرعاية غير أن الفراغ شىء قاتل فلا مدرسة ولا أى وسيلة من الوسائل التى تملؤه غير أن ينصرف الإنسان إلى تشغيل جسده وعضلاته وأن يعطل ذهنه وتطلعاته ، وإن كانت محدودة وصغيرة ، أقول هذا الآن وإن كنت لا أدرك هذه الحقيقة فأضع لها فى ذهنى أسلوباً مبكراً ، ما حصل هذا آنذاك ، ولكن للإنسان قدراً يساعده فى طريقه إذا انتوى السير عليه . أول شىء فكرت فيه أن أغادر بلدى وإلى أين ؟؟..... إلى العراق . تظاهرت الآمال فى ذهنى ، وهو ذهن أحكم عليه آنذاك أنه بريق من الخيال والأمانى والأحلام الطفولية ، وكان لى صديق من البادية مات قريبا وكان رجلا مهذبا ومحدثا أسررت له بنيتى وقلت له : أنت صديق فخذنى إلى العراق ! ! فصفعنى على خدى وقال كلمات أزعجتنى آنذاك وأغضبتنى عليه ، ولكنه أتبع هذه الصفعة بقوله آخذك إلى الرياض ، وفعلاً ذهبت وإياه إلى الرياض وكتبت كتاباً للملك عبد العزيز ـ رحمه الله ـ أشرح له فيه ظروفى وحاجتى إلى رعايته

وليس هذا غريبا فكل إنسان فى تلك الأيام يرى فى الملك عبد العزيز أباً رحيماً .

فكتب الملك عبد العزيز إلى أخى يسأله عنى فجاء الجواب لقد كبر أخى وتطلع إلى عمل .....

فرد عليه الملك عبد العزيز (ر) أسلم عملك لأخيك ، وتوجه إلى القصيم فأنا محتاج إلى رجل مثلك هناك ، ومن تلك اللحظة صدر الأمر الكريم فى عام ٥٧هـ وبدأت مسؤوليتى مع العمل إلى يومى هذا ولا أدرى متى أودعها .

وهنا وفى هذه اللحظة تتظاهر فى خاطرى صور عن تلك الأيام البعيدة فى حياتى ، ولكن الصورة الجميلة التى لم تهزمها فى ذهنى كل السنين الطويلة ولم تقل لها أيامى هذه : لاتلحقى بى ! هى تعلقى بكل من أجد عنده ولو قليلاً من المعرفة لأتتلمذ عليه . والمعرفة آنذاك لم يكن لها مدرسة ولا معلم . إلا أن الإنسان مهما كان بسيطاً ومهما كانت الحياة حافظة لأسرارها يجد طالب المعرفة عندهما تنشيطاً للذهنه من تجربة غيره ، ولعل الرسوم والأطلال التى لم يعفّ عليها الزمن فى منازل حاتم الطائى وفارس بنى عبس وامرىء القيس وصعاليك العرب وسواهم كانت معلماً أثار التساؤلات وهكذا كلما زرنا مضارب خيامهم تساءلنا وكان التساؤل دائماً مغرياً حين يأتى الجواب متسللاً

من أعماق السنين الطويلة حاملاً معه قصة الرسوم والأطلال عن أولئك العرب الذين صمدوا أمام الأحداث وغير الزمان وصارت حياتهم قصصاً وبطولات تدرَّس فى جامعات القرن العشرين . هم اليوم لم يكونوا القبيلة ولكنهم الرموز العظيمة للإنسان العربى .

ما أخذت هذه الرسالة فى لون من ألوان القصص الذى يستهدف سرد حياة لإنسان عادى مثلى ويضعها هنا خطوة خطوة ، أبداً ، ماكان هذا هدفا ولن يكون إلا أن خاطرة ألقت علىَّ تساؤلاً قد يطرحه قارىء لهذه الرسائل : مَنْ يكون صاحبها وما لون حياته وما دوره مع القلم أو مع المسؤولية ؟ وتساؤل كهذا لا جواب له فى كل رسائلى لأنها خصوصيات وظروف حياة لا فائدة من بعثرتها على جوانب الطريق العام .

وما قصدت بهذه الرسالة إلا أن ألتقى مع اللحظة الأولى مع لحظة الألم والقابلية للضياع أو الإهتداء ، وأشكر الله أن رحم طفولتى آنذاك ويتمى فلم تذهب ريحى فى مهب الرياح ، والفضل لله ثم للبيئة وللقرية التى تبنى تقاليدها ولاتهدم ، وتعطى مثالا من الأخ والجار وساكن القرية .... وهى ما أحن إليها حنين السحب ، وأبكى بكاءها على أرض عطشى ......!!

لـــــو أنَّ روّاد الفضـــــاء ...!!

أبـوىّ :

ماذا أبقى لنا الإنسان من مكان بكر لم تمش عليه قدمه الذهنية ؟ لاشىء . كل مافى الزمان والمكان لم نجد فيه مفحص قطاة ليس للإنسان موطئ قدم فيه ، فإذا حاولت المسير الآن فى أى اتجاه تعترضنى صور لا تجانس بينها فتقول لى إلى أين أنت ذاهب .. ؟ فكل مكان مشغول بمن سبقك إليه ، فكيف والحالة هكذا أستطيع أن آتى بمالم تستطعه الأوائل ـ كما قال رهين المحبسين ...؟ فيوم تجاوز أبو العلاء بهذا الزمان والمكان والتقى بنا فى القرن العشرين أتراه يتواضع إذا احتج عليه هذا العصر وقال هل تستطيع أن تأتى بما أتينا به ...؟ لا أدرى ولكنى أحار فى تجاوزات الإنسان على أخيه الإنسان وشموخه بالكبرياء عليه ، فهذه الحياة حتى الآن لم يأت فيها إنسان بخبر من الأخبار لا يجد من يعترض عليه، ويقول له: أسفارك رواحلها هزيلة ماقطعت بك فى الفلاة الواسعة أكثر من أميال ... وما تداعى الصور لملامح الحياة على مرآة الإنسان بآتية معها صورة

واحدة يستطيع إنسان مثلى أن يقبض عليها ويقول لها : ماهى أخبارك خبرينى أأنت ظل ...؟ ولمن ....؟ أأنت ظل لهذه الحياة الفانية ينطرح على الزمان والمكان ثم يطويه الفناء ....؟ وإذا تساءلت وألححت فى السؤال هل هناك جواب منتظر من غير فم الفناء ...؟ ولكل سؤال طرح أو ينتظر من يثيره من مرقده ويرميه فى الطريق لا أتصور إلا أن كل شيء لاحق بحلق الفناء ، وما هذا التداعى على خاطرى بتجاوزٍ على جمّال هذه الحياة وما فيها من زينة فاتنة ، فكل مايقابلنا فى سيرنا يثير الإحساس والشعور بكرم واهب الحياة ومعطيها للإنسان وللنبات وللطير والكون بما فيه من جمّال يطل علينا بمفاتنه ، فيوم تمر بى على الدرب فتاة فاتنة وبيدها زهرة جميلة قابضة على يد أمها العجوز وأطرح بصرى على أمها ثم أسألها كيف أنت وأيام الشباب ... أهذه الحالة التى أنت عليها الآن هى الحالة التى ستصل إليها ابنتك الجميلة ..؟ تدمع عيناها ثم تسير دون جواب .

ومثلى يوم يحمل قلمه ويحاول أن يسير خارج نفسه ، ويذهب بهذه النفس إلى البعيد لعلها تستطلع عبرة أو عظة تعود بها إلى حشايتها الذاتية فتصعد منبر الذات لتقدم ما عادت به من سفرها لهذه الحاشية التى ماتصالحت فيها قبيلة مع أخرى ، وماضربت خيامها واحدة من هذه القبائل فى مكان مربع لايصيبها القلق فيه فلا تنوى

الرحيل عنه ، أفى إمكانى أن أُلبس هذه النفس الخطام وأقودها إلى حيث أشاء ، فتمشى ذلولاً لاتبرك بى فى أثناء الطريق ...؟ هذا مالا أستطيع أن أملك الجواب عنه ، وإن كان مع نفسى . قد يستطيع الإنسان أن يُلبس الخطام جبلا من الحديد والركام الذى لا نَفْسٌ له ولانَفَسٌ ولا عْرقٌ ينبض فيذهب به بعيداً ، وقد ألبسه هذا الخطام وملأ معدته من فيض ذهنه وعقله فهل ارتوى ..؟ وهل غاض مافى قدح الذهن والعقل ومنتظر أن يجف النهر ..؟ هذا التساؤل يقف بى على حافة الهاوية والخطر ، لو أننى خطوت خطوة واحدة إلى (لا) أو (نعم) ، فالذى وهب الإنسان الحياة وعلمه الأسماء وأعطاه هذا السلطان لايتجاوز على عطائه وكرمه وعلمه إلا إنسان فاسد المزاج حائر لايدرى أين قبلته .

ولأنى أحاول ألا أكون هذا الإنسان ، لا أحنى رقبتى على قراءة توافه الحياة اليومية التى تعترضنى مثلما تعترض غيرى ، فرقبة تثقلها هذه التوافه ولاترتفع لاستطلاع الطريق الذى تمشى عليه إلى قدرها معه سائرة فى عتمة مظلمة .

أفى إمكانى أن أتجاوز همومى ومعاناتى ومتناقضات الأشياء داخل نفسى ...؟ هل فى إمكانى أن أنطوى تحت جناح الأمل فى عبور وعورة الطريق الذى أحمله معى ، وليس بطريق خارج هذه

النفس ...؟ ما أكثر ماتحاملت على شيخوختى واخترت لها مكاناً فى قمة كثيب من كثبان الصحراء تحيط به روائح الربيع وتبسم له نجوم السماء وناديت على هذه الآلام وهذه الهموم وتلك المتناقضات أن أفرجى عن سعادتى المعتقلة.

وهذه مشكلة رجل مثلى لم ينادِ ولم يرفع الصوت إلا حين ضعف وصار إلى أنين تاه فى قلب الصحراء ، وما أسفى على شباب أضعته أو على حاضر أعجبنى ، وآلمنى ألا أكون من شبابه .... أبداً ، لا هذا ولا ذاك فالأيام واحدة لم تأكل شبابى وتبقنى جلدا على عظم ، بل أكلت من كان قبلى وستأكل من يكون بعدى ، ولكن ما أكلته الأيام لا آسف عليه وإنما الذى آسف عليه هو الذى لاتظهر لى ملامحه ولا أدرى صحته من مرضه ولا أعرف ماذا فى سجله ، فإذا تجاوز بى الأمل كل هذه الآلام لا أقص جناحه بمقراض من التشاؤم والحسرات ، بل سأظل أكابد وأقاتل كل وسوسة تحاول أن تهيض هذا الجناح وتبقينى فريسة لكواسر الطير داخل نفسى ، فكل ماهو خارج هذه النفس إن كان فى الأرض أو فى السماء مما هو محسوس وملموس ومرئى بالعين المجردة لاعيب فيه ولاقبح ، بل هو جمال ونظام بديع وهذه صور لم تلبس الحداد ولم يفرض عليها الحجاب ، بل هى فى تبد وزينة تعرض نفسها على الإنسان عرضاً لاتبذل فيه ولا

وقاحة ، ولكن الإنسان ذاته هو الذى يشوه الجمال فى مرآته الخاصة

أأنا بهذا أورد قلمى مياهاً عذبة فتسقيه من عذوبتها ألفاظاً لايعيبها سحبان وائل ..؟ أم أنه قلم لايُحسن الورد ، وإذا أورد لايحسنُ الصَدَر ..؟ أتساءل ولا أنوى أن أطرح القلم على مفترق الطرق إذا لم يأتنى الجواب ، فهو الذى يحطّ على كاهله مثل هذه الألفاظ ؛ وإنسان لا قلم له ولا ألفاظ محمولة على فم القلم فى أى مكان نلتقى به لنتعرف إليه وإلى مايداخله ..؟ فالسكون ليس فى شجرة الإنسان ولكنه فى الحجر إذا جاز لنا أن نتهمه بذلك ، وهل أن من لفّق تهمة لبرىء يستريح استراحة الحجر وأن بينهما نسبا فى القسوة ...؟ فطينة الإنسان وأحجار الجبل عنده كثيراً ماسببت له وللإنسانية متاعب أظلمت لها شمس الضحى عنده ! !

ورعاة البقر يوم صاروا رعاة للبشر هل ارتادوا للإنسان مراعى خصبة مثلما كانوا يرتادونها لأبقارهم ....؟ من نسأل ...؟ أنسأل هيروشيما ...؟ أنسأل الأيامى والمظلومين فى أنحاء الأرض ..؟ وإذا تساءلنا فمن يستقبل السؤال ليجيب عنه ..؟ لا أحد غير الفراغ ، ليس فيه أذن مصغية لأنين بائسة أو بائس . وإذا عدنا إلى الوراء إلى رعاة الإبل والضأن وساءلنا التاريخ كيف هم يوم تحولوا من رعاة إبل إلى رعاة للبشر..؟ أين نجد الجواب ...؟ نجده من فم الرحمة

المهداة حين قال للخائف : « هوِّن عليك ، إنما أنا ابن امرأة تأكل القديد » . ونلقاه عند من قال : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا » .

ما أسرع تداعى مصائب الإنسان المعاصر وآلامه ، وتزاحمها على فم القلم ! ! كل واحدة تقول خذنى إليك لعلى أتنفس الصعداء ولأن قلمى ضيق الأفق ضيق الصدر رعديدٌ يرتعش من الهزال ألوذ به داخل نفسى ، ثم أقول له من هنا وردك وصَدرك ! ! ولكن حدثاً أو أحداثًا تغافلنى وتملى عليه ملامحها فإذا تنبهت لها ألقيت عليه القبض وشددت الحراسة على فمه وسمعه حتى لايذهب بى بعيدا عن نفسى ويدخل فى متاهات عالم يقودُ أكثرَ من فيه مَنْ تاهوا فى الزمان البعيد[1] والتيه ماذا يرمز له فى تاريخ القوم ...؟ أترك الجواب معلقاً فى الفضاء حتى يأتى غداً أو بعد غد من يجيب عنه بقلم ليس من أقلامنا ــ نحن الثرثارين ــ

فالليالى من الزمان حُبالى مثقلات يلدن كل عجيب

وأسفارى مع ملامح الأحداث أو ملامح الصور التى تطرحها على جدار الإنسان فتثلمه ، لا أدرى أهى قوافل محملة ظهورها بالمياه

---

(١) يعنى الصهاينة .

العذبة أو المياه الكدرة ؟ ولكنى فى كل أسفارى داخل نفسى أو خارجها أمشى على أصابع القدم خوفا من أن يستيقظ ثعبان راقد فيلدغنى ، وما أكثر الثعابين التى تفح فحيحاً رهيباً على أفواه الطرقات البشرية ... وكلما استيقظ ثعبان من ثعابين النفس وأراد أن ينفث سمومه فى حلق قلمى وتنبهت له عاد هارباً إلى مكانه الذى يختفى فيه ، وما أكثر مافى النفس من كهوف ومتاهات لايستطيع إنسان لايملك حريته ولايملك إرادته أن يهتدى إليها ! ! والذين اهتدوا إليها فى تاريخ البشرية قليلون جداً ، ولكنهم الصفوة الذين يجملون وجه البشرية ويحققون المعنى الكريم لرسالتها على هذه الأرض التى تموج الآن بعالم يستحق الرثاء . فلو أن صخرة من صخور القمر نطقت وقالت لزواره : ماذا بكم على كوكب ملأته الرحمة لكم أيها البشر بالغنى المادى والغنى الروحى ، ماذا عندى حتى تأتى إلىّ مثقلا بأكوام من الحديد ومن الخوف والهموم ؟ لو أن هذا السؤال وجده رواد القمر مخطوطاً على جبهة صخرة من صخوره لحاروا فى الجواب ، ولما قالوا أكثر من : أن مجيئنا هنا حملنا إليه القلق والسأم وقد لاتكون زيارة موفقة ! !

لو أن رواد الفضاء وجدوا مكتوباً على صخرة من صخور القمر أهذه الرحلات التى فتحت لكم ثغرة ضيقة على مشاهد هذا الكون

الواسع ألقت على نفوسكم القلقة والمعذبة بالسأم شيئاً من الإيمان بخالق هذا الكون ومبدعه وعدتم تبشرون بذلك ، ألا يكون لهذه الرحلات معناها العظيم الذى لايساويه كل ثراء الأرض وكل مافى الحياة من متع ؟

ليت الوسيلة العلمية حققت الهدف العظيم والجليل من الإيمان بالخالق ... !

فهرس المقالات

الجزء الأول :

انتهى الجزء الأول

ويليه

الجزء الثانى

رقم الايداع ٠ ٨٧/٥٧٠٦
الترقيم الدولى : ٨ ـ ١٢٥ ـ ١٤٨ ـ ٩٧٧

مطابع الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف ٧٧٤٨١٤ - ٧٧٤٥٧٨ - برقيا: شروق - تلكس 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب ٨٠٦٤ - هاتف ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس SHOROK 20175 LE

هــذا الكتاب

لم أكد أقرأ من هذا الكتاب فاتحته

حتى أحسست وكأنى خطوتُ بقدمى فى عالم مسحور،

يستضىء بضوء القمر الحالم

الذى يشيع أمام البصر ما يشبهُ أن يكون أحلام الحالمين.

إذ أحسست كأنّ الذى أمامى ليس كلمات مسودة

إنما هو ضروبٌ من الحنين الخائف. ومن القلق المتأرق ومن الطموح المتوثب.

إن هذا الكتاب بكل ما ورد فيه من خواطر

عما أفضتْ به نفس كاتبه أمام أبويه.

إنما هو ضرب جديد من السيرة الذاتية،

فلقد رأينا وقرأنا قبل ذلك كثيرا

من سير العظماء التى ترجموا بها عن ذوات نفوسهم،

ولكننا قلما وقعتْ أبصارنا على سيرة ذاتية جاءتْ بالصورة

التى جاءت بها سيرة الكاتب

عن نفسه فى هذا الكتاب،

د . زكى نجيب محمود